تدبر وفهم كَلَامِ رَبِّي

سورة الفرقان وسورة الشعراء

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

7 صفر 1448 الموافق 21 يوليو 2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع ....".. . . . .**الصفحة**

سور الفرقان 4

سورة الشعراء..... 32

المراجع 73

سورة الفرقان

تسمية السورة

سورة الفرقان، ولا يُعرف لها اسم آخر في المصاحف وكتب التفسير المعتمدة سوى ما جرت به عادة بعض المؤدبين بتسميتها" تبارك الفرقان "تبركاً بافتتاحيتها بقول الله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) [الفرقان:1].

وهي **مكية** في أرجح الأقوال، وعدد آياتها **77 آية** باتفاق علماء عدّ الآيات بلا خلاف بينهم، و : قيل إن الآيات (68، 69، 70) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} مدنية، ولكن الصحيح المعتمد أنها مكية أيضاً كما نصّ غير واحد من المفسرين وأكدته الروايات الصحيحة.

سبب النزول:

لم يصح في السورة كاملة سبب نزول، لكن صح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سَألتُ -أو سُئِلَ- رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الذَّنبِ عِندَ اللهِ أكبَرُ؟ قال: أن تَجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: ثُمَّ أن تَقتُلَ ولَدَكَ خَشيةَ أن يَطعَمَ معكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِكَ. قال: ونَزَلَت هذه الآيةُ تَصديقًا لقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (والذينَ لا يَدعونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ولا يَقتُلونَ النَّفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحَقِّ ولا يَزنونَ) [الفرقان: 68] [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

*(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(2) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (6) وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (8) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ

1 - أخرجه البخاري (4761)، ومسلم (86) باختلاف يسير.

سَعِيرًا(11) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا(16))

هذه الافتتاحية لسورة الفرقان نصٌّ قرآنِيٌّ يفيضُ جلالاً، ويتفجّر بياناً، ويصوغ مواجهةً فاصلة بين الحق المطلق والباطل المتهافت.

التقديم العام والمحور الناظم للآيات: إن السورة تُعنى ببناء العقيدة، وتثبيت التوحيد، وإثبات صدق الرسالة والقرآن، ومواجهة الشبهات بالحجة البالغة، مع عرض مشاهد القيامة الحية». هكذا قدم لها سيد قطب – رحمه الله -.

المحور السلوكي والفكري: افتُتِحَت السورة بتمجيد الرب سبحانه على تنزيل "الفرقان"، ليكون الفاصل الدائم بين الحق والباطل، ثم استعرضت شبهات المكذبين المتهافتة ومآلهم، متناسقةً مع اسم السورة (الفرقان) في فرقانيتها المطلقة.

*﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، إشراقة بلاغية:

(تَبَارَكَ): فعل ماضٍ يدل على ثبات البركة وعظمتها وكثرة خيره وديمومته؛ ولا يُقال إلا لله.

(تَبَارَكَ) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال معناه: جاء بكل بركة، وقال الضحاك: تعظّم، (الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ) أي: القرآن، (عَلَىٰ عَبْدِهِ) محمد صلى الله عليه وسلم (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) أي: للجن والإنس.

(نَزَّلَ): بصيغة التكثير والتفعيل، إشارة إلى تنزيل القرآن مفرقاً ومُنجماً بحسب الوقائع والأحداث.

(الْفُرْقَانَ): مصدر عُدِل به إلى الاسمية للمبالغة، فهو يفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر.

(عَبْدِهِ): إضافة الشرف والتكريم للرسول ﷺ؛ فكمال العبودية لله هو أعلى منازل البشرية.

قال أبو إسحاق الألبيري:

ومما زادني شرفا وتيها. . .. وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي. وأن صيرت أحمد لي نبيّا

*(لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا): عموم الرسالة لكل الإنس والجن، والتعبير بـ (نذيراً) للتخويف الشفيق ومناسبة السياق المشتمل على رد الشبهات والإنذار.

*﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه صفة المخلوق،

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا): تنكير (تقديراً) والمفعول المطلق يدل على الإتقان والإحكام العجيب في الخلق (لغةً، وفيزياءً، وحكمةً). أي سواه وهيأه لما يصلح له، لا خلل فيه ولا تفاوت.

وفي لفتة ابن القيم وابن تيمية – رحمهما الله -: الربوبية التامة تستلزم تنزيه الله عز وجل عن الولد والشريك؛ فالولد يحتاجه العاجز للتكاثر، والشريك يحتاجه الضعيف للمؤازرة، والله هو الغني القاهر الخالق لكل شيء.

*﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾

المقابلة والبلاغة: تقابل صارخ بين صفات الرب العظيمة سبحانه، في الآية السابقة وبين عجز الآلهة المعبودة من دونه في هذه الآية.

التدرج البلاغي: لا يخلقون (نفي القدرة على الإيجاد)، بل هم يُخلَقون (إثبات التبعية والحدوث)، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً (عجز ذاتي)، قدم (الضر) على (النفع) لأن دفع الضرر أسبق وأهم عند العقل، انعدام التصرف في أخطر شؤون الوجود: (الموت، الحياة، النشور).

*﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾

(إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ): أسلوب قصر وحصر لبيان شدة جحودهم وإضرابهم عن الحق.

*(إِفْكٌ افْتَرَاهُ): الإفك أشد الكذب المقلوب عن وجهه، والافتراء هو اختلاقه بلا حجة.

نظرة ابن عاشور في قوله تعالى: (فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) قال: أي: أتَوا بفعلٍ ملابِس للظلم (العدوان على الرسول) والزور (الكذب الباطل)؛ وتنكيرها لتعظيم هذا الإثم وتفحيشه.

*﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: (أَسَاطِيرُ): جمع أسطورة، وهي الأباطيل والأكاذيب المستسطرة المحكية.

(اكْتَتَبَهَا): بصيغة افتعل؛ أي طلب كتابتها واستنسخها من آخرين بشغف وحرص، وهي مثل (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل:103]. ومعنى (اكتتبها) يعني: طلب أن تكتب له، لأنه كان لا يكتب.

*(فهي تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا): أي: تقرأ عليه ليحفظها، والتعبير بالمضارع المبني لما لم يسم فاعله يفيد الاستمرار والتكرار، و(بكرة وأصيلاً) إحاطة بجميع أوقات اليوم، مما يظهر مدى التناقض والتهافت في شبهتهم؛ إذ كيف لأميّ لا يقرأ ولا يكتب أن يكتتب ويُملى عليه بكرة وأصيلاً في وسط قومه دون أن يراه أو يشعر به أحد؟!

*﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. إشراقة بلاغية في التناسب:

جاء الرد بدمج المعجزة بالعلم: من أنزله هو العليم ببواطن الأمور في العوالم كلها، فكيف تشبه إعجازه بأساطير البشر؟!

ختام الآية بقوله تعالى: (غَفُورًا رَّحِيمًا): لفتة وجدانية عالية؛ فبالرغم من هذه الافتراءات والظلم الصادر منهم، إلاّ أن باب التوبة والرحمة لا يزال مفتوحاً إن هم أنابوا واستغفروا.

*﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

تتجلى المادية المقيتة والتفكير القاصر – كما بين الأستاذان سيد ومحمد قطب – رحمهما الله - في شبهاتهم؛ فهم يجهلون حكمة النبوة البشرية ويقيسونها بالمظاهر المادية والملك.

التدرج التنزيلي في اقتراحاتهم التعنتية: أن يكون الملك رسولاً، فإن لم يكن، فليكن معه ملكٌ يعينه، فإن لم يكن، فليُنْزَل عليه كنز من السماء، فإن لم يكن، فلتمسَك له بساتين يقتات منها!

انتهى بهم العجز السياسي والفكري إلى الوصم بالنقص العاطفي والنفسي: (رَّجُلًا مَّسْحُورًا).

مسحورا: قيل مخدوعاً، وقيل: مصروفا عن الحق، وقد يقال، بأن مسحور بمعنى ساحر، لقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) [الذاريات: 52].

أمّا سيد ومحمد قطب – رحمهما الله - فيريان في توجيههما لهذه الآية وأمثالها أن المشركين لجؤوا إلى أسلوب "التشكيك النفسي" بنبز النبي ﷺ بأباطيل مختلفة تارة

شاعر، تارة مجنون، وتارة مسحور. وهذا التخبط يعكس حالة العجز والإفلاس الفكري لديهم أمام قوة القرآن وسلطان الدعوة.

*﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: الأمر (انظُرْ) للتعجيب من مناهجهم السقيمة واضطراب أفكارهم.

سمى القرآن شبههم المتضاربة (ساحر، مسحور، شاعر، كذاب، مكتتب) بـ (الأَمْثَالَ) لأنها أقوال غريبة ملفتة للتعجب، ومصير هذا التناقض: الضلال والتيه ومتاهة لا منفذ منها (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا).

هذه الآية تسوقُ مشهداً تعجبياً من تخبط أهل الباطل في وصف النبوة. تفيد الآية أن المشركين لما حاروا في فهم حقيقة النبي، أطلقوا عليه أوصافاً متناقضة (ساحر، مجنون، شاعر)، فضاعوا عن الحق ولم يجدوا إليه طريقاً.

معنى "ضرب الأمثال" في اللغة: "ضَرْب" الشيء يعني وضعه وتثبيته. و"ضرب المثل" مشتق من صوغ العملة وسكّها (ضرب الدنانير)، للدلالة على صياغة القول وإبرازه في قالب ثابت.

المقصود هنا: هو التشبيه، والتمثيل، واختلاق "الأشباه". أي انظر كيف جعلوا لك نظراء وأمثالاً باطلة يقيسونك بها لصد الناس عنك.

عن ابن عباس -رضي الله عنهما :-أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا! قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فوالله، ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني، والله، ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر، قال: (هذا سحر يؤثر) يأثره عن غيره، فنزلت: ذرني ومن خلقت وحيدًا[1].

اضطراب وتناقض وحيرة الطغاة: يشير العلامة ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) إلى أنّ "كيف" هنا للتعجيب من حالتهم؛ فهم لم يكتفوا بوصف واحد، بل تنقلوا بين أوصافٍ متهافتة لا تجتمع في شخص واحد (شاعر، ساحر، كاهن، مجنون، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)، هذا التضارب في الأمثال والأشباه

(1) – قال الحاكم :هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال في الدرر السنية: مرسل.

هو الدليل القاطع على إفلاسهم الفكري. فلو كان لديهم ممسك حقيقي لثبتوا عليه، لكنهم يتخبطون، وهو ما أبرزه تفسير البغوي بأنهم حاروا وحادوا عن طريق الصواب.

وقوله تعالى (فلا يستطيعون سبيلا) يشير إلى أنهم لما زاغوا عن طريق التوحيد، أعمى الله بصائرهم؛ فمهما حاولوا إيجاد طريق للطعن في النبوة، باءت محاولاتهم بالفشل.

*﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾

الرد والاستئناف: عودة لتكرار (تَبَارَكَ) لترسيخ أن العطاء والمنحة والقدرة كلها بيده عز وجل.

(إِن شَاءَ): تعليق العطاء بالمشيئة إشارة إلى أن حبس الدنيا عن الرسول ليس لعجزٍ، بل لحكمة ومقصد أسمى يتعلق بتمام العبودية والرسالة، وليكون القدوة للفقير والغني.

*﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

مقارنة بين مشهد النار ومصير المكذبين في الآيات:

الآية	التحليل والتفسير
(إِذَا رَأَتْهُم)	التصوير الحسي للنار أنها تحس وتبصر وتهجم.
الصوت: (تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) / الصورة: (مُّقَرَّنِينَ)	الصوت والصورة
الإلقاء المهين في (مَّكَانًا ضَيِّقًا)	حالة العذاب المكاني
الدعاء بـ (الثبور) أي الهلاك الفوري	ردة الفعل النفسي

التدبر البياني والنفسي: *(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ): إضراب يستنبط منه المسبب الحقيقي لجميع الشبهات؛ فسبب تعنتهم ليس طلب الحقيقة، بل إنكار البعث والحساب!

(مُّقَرَّنِينَ): مصفدين ومربوطين بالأغلال مع شياطينهم، (لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا...): تهكم وسخرية تقريعيه؛ أي إن الهلاك والعذاب أضخم وأمرّ من أن يدفعه هلاكٌ واحدٌ أو صراخٌ واحد!

*﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾

أسلوب الموازنة والتفريغ العقلاني: (أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جنة الخلد): استفهام تقريعي؛ لا ليقارن بين خيرين، بل لمخاطبة ما بقي من بقايا العقل والمنطق لدى الكافر.

(التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ): العلية هنا للتقوى، والجنة نالها العباد بفضل الله ومقتضى وعده.

(وَعْدًا مَّسْئُولًا): قال ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله -: أي وعداً يطلبه العباد ويسألونه ربهم في دعائهم (ربنا وآتنا ما وعدتنا)، أو هو وعدٌ حقيقٌ على الله وفاءُه كأنه واجبٌ أوجبه على نفسه يسأله السائلون مستحقين بوعده الكريم.

الخلاصة التركيبية والسياقية: تتدرج النص القرآني في هذه الآيات عبر هندسة بيانية بليغة:

الافتتاح والإعلان: إثبات العظمة المطلقة لله والتنزيل والعبودية، ثم عرض الشبهات وتفكيكها، ثم استعراض حجج الكفار الواهية ودحضها بياناً وعقلاً.

ثم المشهد المصيري والجزاء، نقل المشهد من جدل الدنيا إلى حقيقة الآخرة، لإبراز الفرقان الخالد بين الخسران الأبدي والنعم المخلد.

*(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (29) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا(32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا(34))

تتجلّى في هذه الآيات المباركات في هذا الدرس من سورة الفرقان ملحمةٌ بيانية تشخيصية لمشاهد القيامة، وحوارات المصير، وشبهات المشركين ودرئها، وصولاً إلى أثر القرآن الكريم في تثبيت فؤاد النبي ﷺ.

مشهد الاستجواب والمحاكمة الإلهية: *﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾؟.

السياق والسبك: ينتقل السياق من تقرير وحدانية الله في الدنيا إلى مشهد مواجهة العابدين والمعبودين يوم القيامة لتكتمل الحجة.

إشراقة بلاغة أسلوبية: التعبير بـ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ بإدراج "ما" لغير العاقل قال الكلبي: يعني: الأصنام، وقال مجاهد: من الملائكة والجن والأنس وعيسى وعزير.

الاستفهام في ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ...﴾ استفهام تقريري وإبكام للمشركين، وليس جهلاً من الله، بل لإظهار براءة المتبوعين من التابعين.

لطيفة تدبرية: يلحظ ابن عاشور – رحمه الله - أن إضافة العباد إلى الضمير الإلهي ﴿عِبَادِي﴾ فيها تشريف للمخلوقين وعتاب أليم للمشركين؛ كيف تُشْرِكون بمن هو عبدٌ لي؟

*﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

افتتح المعبودون الجواب بـ ﴿سُبْحَانَكَ﴾ فنزهوا الله من أنْ يكون معه إله، وهي البداءة الواجبة قبل نفي التهمة عن أنفسهم.

نفي الصلاحية ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾ يدل على الاستحالة العقليّة والشرعيّة؛ أي ليس من شأننا ولا يتأتى منا أنْ نوالي أعداءك، بل أنت ولينا..

﴿بُورًا﴾: من "البوار" وهو الهلاك والكساد، غلب عليهم الشقاء والخذلان، يقال للأرض (بورا) أي: بائراً لا خير فيها ولا نماء.

يرى ابن القيم – رحمه الله - أنّ السبب الأصلي للانحراف هو النعمة غير المشكورة ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾، فاستغرقوا في الشهوات. ويؤكد ذلك سيد قطب – رحمه الله - بأن الرخاء بلا إيمان يتحول إلى غفلة تقتل القلوب حتى تجعلها أرضاً بوراً جافة.

*﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

التفات إلهي بالخطاب للمشركين (القتلة الحقيقيين لأنفسهم): ها قد كذّبكم معبودوكم!

أمّا قوله سبحانه: ﴿فما تستطيعون صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ تنكير صرفاً ونصراً يقتضي العموم والشمول؛ فلا يقدرون على صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصر غيرهم.

الإبتلاء: سنة الرسل: *﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

وفي ذلك دحض لشبهة المشركين التي سبقت في السورة: (مالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ).

إشراقة بلاغية وسر الفتنة: التعبير بالاستفهام ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ للتكليف والتحريض على الصبر، وفيه هزة للضمير.

يذكر البقاعي – رحمه الله - تناسب هذه الآية مع ما قبلها؛ فلما ذكر العذاب على الظلم، بيّن أنْ جعل بعض الناس لبعض فتنة (الفقير مع الغني، الشريف مع الضعيف) هو ميدان الابتلاء.

ويرى محمد قطب – رحمه الله - أن سر حركة الحياة البشرية يقوم على هذا التدافع، فالغني يُبتلى بالفقير هل يعطف عليه، والفقير يُبتلى بالغني هل يصبر ولا يحسد، والرسول يبتلى بقومه.

العتو والاستكبار ومصير الأعمال: *﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

التحليل الأسلوبي: نعتَهم بـ ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لأن أصل تعنتهم هو إنكار البعث وعدم الخوف من الحساب.

البيان: ﴿عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ استخدام المفعول المطلق للتأكيد والمبالغة، والعتو هو أشد طغيان الكبر والتجاوز للحد.

*﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾،

المشهد والتقابُل: طلبوا رؤية الملائكة في الدنيا تكبراً، فسيرونهم في المحتضر أو القيامة لكنها رؤية رعب لا بشرى!،

وذلك أن الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة، وعند الموت: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ،، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ، وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت:30-33].

ويقولون للكافر: لا بشرى لكم. هكذا قال عطية، وقيل: أي لا بشارة للمجرمين بالجنة كما يبشر المؤمنون[1].

﴿ويقولون حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كلمة (حجرا محجورا) كانت تقولها العرب عند لقاء عدو يخشونه أو حلول مصيبة؛ أي تعوذاً ومنعاً حَرَاماً متأكداً. قال ابن عباس: تقول الملائكة: حراماً محرماً أن يدخل الجنة، إلاّ من قال: لا إله إلاّ الله.

*﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾: الصورة البيانية: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ تمثيل لهيبة السلطان والعدل الإلهي الحاسم.

﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ أي: باطلا لا ثواب له، لأنهم لم يعلموه لله عز وجل، تشبيه بليغ للعمل بلا إيمان. الهباء هو الغبار الشعاعي الذي يرى في ضوء الشمس من النافذة ولا يُلمس، وقيل: هو ما تطيره الرياح من سنابك الخيل.

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - أنّ الشرط الأساسي لإحراز العمل هو الإخلاص والمتابعة، فإذا خلا العمل من الإيمان صار كالعادم، حساً ومعنى.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: الجماليات والراحة: المقابلة بين شقاء أهل النار وراحة أهل الجنة.

﴿مَقِيلًا﴾ القيلولة هي الاستراحة منتصف النهار، وفيها إشارة بيانية لطيفة إلى أن حساب أهل الجنة يسيرٌ ينتهي في نصف يوم فينتقلون فوراً إلى المقيل والهناء! روي هذا التفسير عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أحوال القيامة وحسرة الظالم: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾، ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ...﴾.

في كتابه (التصوير الفني في القرآن) يقرر سيد قطب – رحمه الله -: أن هذا مشهد كوني مهيب، تتشقق المادة الصلبة (السماء) بالغمام الأبيض الناصع، وتتنزل الملائكة صفوفاً.

إشراقة بلاغية: تخصيص اسم الله ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ هنا لإظهار أن سلطانه الحق في ذلك اليوم هو رحمة للمؤمنين وهولٌ وعسرٌ على الكافرين ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: جَعَلَ اللهُ الرَّحمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمسَكَ عِندَه تِسعةً وتِسعينَ، وأنزَلَ في الأرضِ جُزءًا واحِدًا، فمِن

(1) – انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص848).

ذلك الجُزءِ تَتَراحَمُ الخَلائِقُ، حتَّى تَرفَعَ الدَّابَّةُ حافِرَها عن ولَدِها؛ خَشيةَ أن تُصيبَه .[1].

وفي رواية عنه رضي الله عنه: إنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحمةَ يَومَ خَلَقَها مِائةَ رَحمةٍ، فأمسَكَ عِندَه تِسعًا وتِسعينَ رَحمةً، وأرسَلَ في خَلقِه كُلِّهم رَحمةً واحِدةً، فلو يَعلَمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عِندَ اللهِ مِنَ الرَّحمةِ، لم يَيئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، ولو يَعلَمُ المُؤمِنُ بكُلِّ الذي عِندَ اللهِ مِنَ العَذابِ، لم يَأمَنْ مِنَ النَّارِ[2].

وعن معاوية بن حيده وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللهَ خلق مائةَ رحمةٍ، فبثَّ بين خلقِه رحمةً واحدةً، فهم يتراحمون بها ، و ادَّخَر عندَه لأوليائه تسعةً و تسعِين[3].

هذا غير أن من أسمائه الرحمن الرحيم، وخصص هنا اسم الله ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، وفي ذلك ما فيه من التعريض بالكافرين ودعوة عظيمة لهم بأن ينقذوا أنفسهم من ذلك المصير.

*﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي...﴾

التشخيص الحركي والنفسي: ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ حركة جسدية ناطقة بفرط الندم والحسرة والتأسف، وتكرر العض على اليدين (لا الأصابع فقط) لشدة الهلع.

إبهام الاسم ﴿فُلَانًا﴾ ليعمّ الآية كل صحبة سيئة (عقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف في سبب النزول، وكل قرين سوء إلى يوم القيامة).

الفصل البياني: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ تذييل وتحذير إلهي يبيّن طبيعة خذلان الشيطان لأوليائه عند وقوع الكارثة.

الشكوى النبوية وتنزيل القرآن: *﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

الأسلوب والنداء: جاء النداء بصيغة الاستغاثة والمناجاة ﴿يَا رَبِّ﴾ لرفع الظليمة، وتأكيد التبرؤ من فعلهم. وقوله سبحانه: ﴿مَهْجُورًا﴾: صيغة مفعول من الهجر.

---

(1) – أخرجه البخاري (6000)، ومسلم.(2752)
(2) – أخرجه البخاري (6469)، ومسلم.(2752) بنحوه مختصرا
(3) –صحح الألباني إسناده في صحيح الجامع.

يذكر ابن القيم – رحمه الله - أن هجر القرآن أنواع: هجر سماعه والإيمان به، وهجر العمل به، وهجر تحكيمه، وهجر تدبره، وهجر الاستشفاء به. والآية تتناول كل ذلك.

*﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، في هذه الآية التسلية والدعم النفسي: تسلية لقلب النبي ﷺ؛ فلست بدعاً من الرسل، وكل نبي له أعداء، والباء في ﴿وكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ لتأكيد الكفاية والتثبيت.

*﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، الرد الحكيم على شبهة التنجيم:

طلب الكفار نزوله دفعة واحدة كالتوراة والإنجيل، فجاء الجواب الهادف: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

اللطيفة السياقية: يتجدد نزول القرآن مع الوقائع والتحديات ليظل قلب النبي ﷺ على اتصال مستمر بالسماء.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾: أي أنزلناه مفرقاً ومتمهلاً في تؤدة وتناسق آية بعد آية ليكون أسهل حِفظاً وفهماً وعملاً.

*﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ) يضربونه في أبطال أمرك، (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، يعني: ما ترد ما جاءوا به من المثل وتبطله، التدافع الفكري: إحاطة إلهية كاملة؛ كل شبهة أو خرافة أو اقتراح يطرحونه، يأتي القرآن بالرد الشافي الحق وأحسن إبانة وتوضيحاً ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، فسمى ما يوردونه من الشبه مثلا، وسمى ما يدفع به الشبهة حقاً.

وهذا ما يذكره كثير من المهتدين الجدد، أنّ القرآن والإسلام عموماً يجيب على كل الشبهات، ويجدونه شافياً كافياً ولله الحمد.

*﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الخاتمة والمصير المشهود:

﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: جزاء وفاقاً؛ فكما نكسوا فطرتهم واستكبروا بوجوههم عن السجود لله في الدنيا، يطأطئ الله رؤوسهم ويحشرهم مسحوبين على وجوههم يوم القيامة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رَجُلًا قال: يا نَبيَّ اللهِ، يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يَومَ القيامةِ؟! قال: أليسَ الذي أمشاه على الرِّجلَينِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشيَه على وجهِه يَومَ القيامةِ؟ قال قَتادةُ: بَلى، وعِزَّةِ رَبِّنا[1].

*(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا(43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا(55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩(60))

هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة الفرقان مَلحمةً بيانيةً وفكريةً تأخذ بقلب العبد من صدمات الواقع ومظاهر التكذيب إلى علياء العظمة الإلهية، مروراً بأسرار الكون ومعالم العبودية.

(1) – أخرجه البخاري (4760)، ومسلم (2806)، بلفظه، وأحمد (12708)، وابن حبان (7323) كلاهما باختلاف يسير.

الجزء الأول: العِبرة من التاريخ وسُنّة الإهلاك: *﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾

إشراقة في بلاغة الأسلوب: افتُتحت الآية بـ (ولقد) للتأكيد والربط بسياق التسلية للنبي ﷺ.

يُبرز الطاهر بن عاشور – رحمه الله - أن تقديم موسى وهارون هنا جاء لبيان شرف المؤازرة في الدعوة، حيث جُعل هارون "وزيراً" (من الوَزَر وهو الثقل) ليحمل معه العبء، أو يحمل عنه بعضه.

اللمحة البيانية: جُعل الشقيق عضداً ولم يُترك موسى وحده، إشارة إلى أن عِظم التكليف يتطلب أسباب التمكين البشرية.

*﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾: طُوي زمنيٌّ كامل (الفاء في "فدمرناهم" عاطفة للتعقيب والسببية). لم يُذكر الإرسال والتردد والمحاججة، بل انتقل النَّص فوراً من الإرسال إلى الإهلاك.

يرى سيد قطب – رحمه الله – أنّ طَيَّ الزمان هنا يمنح إيقاعاً سريعاً يخدم الغرض: طغيانٌ فرعونيٌّ عريض ينتهي بلمحة وبكلمة! وتنكير وتأكيد "تدميراً" مفعول مطلق يفيد الإحاطة والإبادة الشاملة.

*﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

البيان الدقيق: قال: ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ مع أنهم كذّبوا نوحاً وحده!، والسر البلاغي هو: أنّ التكذيب برسول واحد هو تكذيبٌ بجنس الرسالة وبجميع الرسل.

الأسلوب: التحول من الفعل الماضي "أغرقناهم" (عذاب الدنيا) إلى "أعتدنا" (عذاب الآخرة) يُبيّن أن العقاب الدنيوي ليس إلاّ بداية لشريط الجزاء.

*﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا)، (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾

التحليل اللغوي: "التَّبّار" هو الهلاك والتدمير الشديد المفتت، ووجه البلاغة هنا: تكرار ﴿وَكُلًّا﴾ لإفادة العموم والعدل؛ فلم يُهلك الله أمةً إلاّ بعد قيام الحجة عليها ("ضربنا له الأمثال")، ولم يُظلم أحد حين قال سبحانه: ("تبرنا تتبيراً").

ضرب الأمثال هنا بمعنى: بيان الحجج، إقامة الأدلة، وإزاحة الأعذار لجميع الأمم السابقة قبل إهلاكها، أي: بينا لهم الحجج وأوضحناها تمام الوضوح، وأرسلنا الآيات والعبر لعلهم يعتبرون.

ومعنى "ضرب الأمثال" في اللغة: "ضَرْب" الشيء يعني وضعه وتثبيته. و"ضرب المثل" مشتق من صوغ العملة وسكّها (ضرب الدنانير)، للدلالة على صياغة القول وإبرازه في قالب ثابت.

المقصود بالنسبة لقريش ومن بعدها ذكر قصص الأمم المكذبة السابقة (مثل قوم نوح وعاد وثمود) حتى لا يكون لهم عذر عند الله.

العاقبة: جاء بعدها قوله تعالى: (وكلا تبرنا تتبيراً) أي أهلكناهم ودمرناهم إهلاكاً شديداً بسبب كفرهم واستمرارهم في العناد رغم وضوح الحجة.

نظرة البقاعي – رحمه الله - في السرد السريع للأمم (عاد، ثمود، أصحاب الرس) يُلفت نظر المشركين إلى أنّ أرضهم وملامح تاريخهم محاطة بآثار هلاك الأمم المكذبة.

*﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ﴾ قرى سدوم قوم لوط، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

البيان والاستفهام: الاستفهام في ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ استفهام إنكاري بتوبيخ؛ فالقرية، أي: قرى قوم لوط في طريق تجارته إلى الشام.

السر النفسي: قوله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يُلخص المشكلة: ليست المشكلة في نُقصان الدليل البصري، بل في إفلاس القلب من الإيمان بالبعث والحساب.

الجزء الثاني: النفس البشرية والانحراف عن الفطرة: *﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا...﴾

النظرة الأسلوبية: سياق السخرية في ﴿أَهَٰذَا﴾ (اسم الإشارة للتحقير زعموا). المفارقة العجيبة: استخدَموا كلمة ﴿صَبَرْنَا﴾، فتأمَّل كيف يُصبح "الصبر" -وهو خلق محمود- مذموماً ومقلوباً عندما يكون صبراً على الباطل والشرك!

روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبيه – رحمهم الله – أن مما صبّره وثبّته على الضرب في محنته لص قال له: كنت أمسك بأسناني على ألم الضرب بالباطل، وأوصاه بالثبات على الحق.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يؤذيه كلامهم ولذع ألسنتهم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا كان يَومُ حُنَينٍ آثَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسًا في القِسمةِ، فأعطى الأقرَعَ بنَ حابِسٍ مِئةً مِنَ الإبِلِ، وأعطى عُيَينةَ مِثلَ ذلك، وأعطى أُناسًا مِن أشرافِ العَرَبِ فآثَرَهم يَومَئذٍ في القِسمةِ، قال رَجُلٌ: واللهِ إنَّ هذه القِسمةَ ما عُدِلَ فيها، وما أُريدَ بها وجْهُ اللهِ، فقُلتُ: واللهِ لَأُخبِرَنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

فأتَيتُه فأخبَرتُه، فقال: فمَن يَعدِلُ إذا لَم يَعدِلِ اللهُ ورَسولُه، رَحِمَ اللهُ موسى قد أوذيَ بأكثَرَ مِن هذا فصَبَرَ[1].

التعقيب الإلهي: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ...﴾ تهديد جازم يقلب السخرية إلى حسرة.

*﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، إشراقة بلاغية: تقديم "إلهه" على "هواه" فيه إفادة اللطف والبلاغة؛ إذ أصل الصياغة (اتخذ هواه إلهاً له)، فلمّا قُدّم الإله، أظهر أن "الهوى" صار هو المعبود والمطاع المُطلق من دون الله.

التشخيص النفسي: الإنسان الذي يتبع شهوته دون زمام، ينسلخ من العقل ويتحول إلى عبدٍ لرغباته الطارئة.

*﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

التشبيه والتفضيل: حصرهم في شبه الأنعام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾، ثم الإضراب بـ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾!

والسر التفسيري: الأنعام تُسقَى وتُهتدى لمصالحها بفطرتها ولا تعصي بارئها، أما هؤلاء فزُوّدوا بالعقول والأفئدة ثم عطلوها فصاروا أضلّ خطواً وأجهل غاية من البهائم!

الجزء الثالث: أدلة القدرة ومعالم الرحمة في الكون: *﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

حركة الظل والنور: [مدّ الظل] ---> [دليل الشمس] ---> [قبض يسير]
(سكون) (حركة) (تدرّج واستمرار)

الجمالية البيانية: الانتقال البديع من الجدال والمحاججة إلى التأمل الكونيّ الهادئ!

التحليل اللغوي والتفسيري: "مدّ الظل" (الفترة بين الفجر وتجلي الشمس)، "دليلاً" (لولا النور لما عُرِف الظل؛ فالأشياء تُعرف بضدها)، "قبضاً يسيراً" (قبضٌ بتدريج ولطف حتى لا تتأذى الكائنات).

إشراقة بلاغية: اللفتة إلى الظل نموذج لرحمة الله؛ فالظل مأوى وملاذ، وتحركه المستمر حركة كوكبية هادئة تنطق بالتطويع الإلهي.

---

(1) – أخرجه البخاري (3150)، ومسلم (1062) باختلاف يسير.

*﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا، وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾

الليل لباساً: يستر كما يستر الثوب، النوم سباتاً: قطع للحركة وراحة للبدن (من السَّبْت وهو القطع)، النهار نشوراً: انتشارات وحركة بعد سكون يشبه الموت.

الوصف الفَريد: وصف الماء بـ﴿طَهُورًا﴾ (صيغة مبالغة: طاهر في نفسه مُطهِّر لغيره) ليناسب الإحياء المعنوي والروحي المذكور بعدها في السورة.

*﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا، وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فأبى أكثر الناس إلاّ كفورا، وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا، فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

التصريف: توزيع المطر وتغيير أحواله زماناً ومكاناً للاتعاظ والتفكر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض، وقرأ هذه الآية.

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلَّى لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبح بالحُديبيَةِ في إثْرِ سماءٍ كانت مِن اللَّيلِ فلمَّا انصرَف أقبَل على النَّاسِ فقال: (هل تَدرونَ ماذا قال ربُّكم) ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلمُ قال : (قال : أصبَح مِن عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ فأمَّا مَن قال : مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِه فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكبِ فأمَّا مَن قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكبِ)[1].

*(لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا) رسولاً ينذرهم، ولكن بعثناك إلى القرى كلها، وحمّلناك ثقل النذارة جميعاً، لتستوجب بصبرك عليه ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة العالية الرفيعة.

والضمير في ﴿بِهِ﴾: في آية (فجاهدهم) يعود على القرآن (كما أجمع المحققون كابن تيمية وابن القيم)، كما أنّ الضمير ﴿بِهِ﴾ في آية لنحيي يعود على المطر.

يشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن الانتقال من التذكير بنعمة المطر إلى الأمر بالجهاد بالقرآن إنما هو تدرج سياقي من "إحياء الأجسام" بالماء إلى "إحياء العقول والأرواح" بالقرآن، فالجهاد بالقرآن هو دفع للموت المعنوي (الكفر) الذي يماثل موت الأرض جفافاً.

(1) – أخرجه البخاري (846)، ومسلم (71) باختلاف يسير.

فالقرآن هو المطر المعنوي، كما يقول ابن القيم – رحمه الله - ما معناه إن الله جعل الوحي يحيي القلوب كما يحيي المطر الأرض. فالجهاد "به" (أي بالقرآن) هو سقي لعقول الحيارى بحجج الوحي، ودحر لشبهات الكافرين.

الجهاد الكبير: يرى ابن تيمية – رحمه الله - أن الجهاد بالقرآن (الحجة والبيان) سُمي "جهاداً كبيراً" لأنه جهاد الأنبياء ابتداءً في مكة حيث لا قتال بالسيف، وهو جهاد يستوعب الزمان والمكان، بينما جهاد السيف "جهاد أصغر" يفرضه واقع الحال للدفاع. فالضمير "به" جعل القرآن مركز الثقل في معركة الوعي.

البيان والأسلوب: تسمية الدعوة بالحجة والقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ تؤكد أنّ الفكر، والبيان، والاستمساك بالحق، هي أصل الجهاد وأعظمه إثراً وأبقاه زامناً.

الجزء الرابع: أسرار المادة وآفاق العبودية: *﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

الماء العذب (فرات)، سائغ الشراب يقطع العطس، والفرات: أعذب المياه، الماء الملح (أجاج) شديد الملوحة، والحاجز بينهما (البرزخ) مانع من اختلاط الخصائص وفساد البيئة. جعل بينهما حاجزاً عجيباً بقدرته؛ لئلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب

إشراقة في بلاغة التعبير: "مرج" أي خلطهما وأفاض أحدهما في الآخر، ولكن مع ذلك جعل بينهما ﴿بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ستراً ممنوعاً، فلا يبغيان، ولا يفسد الملح العذب (مفهوم الحجز والمنع الشديد).

تنبيه الوعي وتوجيهه إلى توازن القوانين الكونية؛ فلو طغى المالح على العذب لماتت الحياة، ولو طغى العذب لتعفنت البحار! إنه تدبير العليم الخبير.

*﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وكان ربك قديرا، ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾

المقابلة بين خلق الإنسان من أصل واحد (الماء)، ثم يتشعب إلى ﴿نَسَبًا﴾ (القرابة) و ﴿صِهْرًا﴾ (الارتباط بالمصاهرة).

الاستنكار العجيب: بعد كل هذه النِعم والدلائل، يذهب الكافر ليعبد ما لا ينفع ولا يضر، بل ويكون ﴿عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (معاوناً للشيطان والباطل ضد شرع ربه)!

*﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، قل ما أسألكم عليه من أجر إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾،

*﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾

"هذه الآيات هي قاعدة السير إلى الله؛ فكل الأسباب تتبدد وتسقط، ولا يبقى إلا الحي الذي لا يموت."

التجريد المطلق: تنزيه النبي ﷺ عن الطمع الدنيوي ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

الأسلوب البلاغي: وصف الله بـ ﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ صُلفة إيمانية تُورث اليقين والقطع مع كل المعبودات والأسباب الزائلة.

*﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فأسأل به خبيرا﴾،

هذه الآية ذروة عقدية وبيانية تختزل حقيقة الخلق والتدبير، وترسم للمؤمن منهجية التلقي والمعرفة.

فسر الصحابة والسلف الصالح (الاستواء): بأنه العلو والارتفاع والاستقرار فوق العرش بلا تكييف ولا تمثيل، مؤكدين إثبات الصفة كما وردت مع تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين.

وذلك أولاً للمعنى اللغوي: فقد نُقل عن علماء التابعين تفسير الاستواء بالعلو والارتفاع، ومن ذلك ما قاله الإمام مجاهد بن جبر في قوله: (استوى) أي علا على العرش، وما نُقل عن أبي العالية والربيع بن أنس أن معناه: ارتفع.

ثم هم يثبتون الإيمان بالصفة وترك الخوض في الكيفية: حيث سلك أئمة السلف مسلك التسليم والإيمان بالمعنى المعلوم مع تفويض الكيفية إلى الله تعالى.

سُئل الإمام مالك بن أنس عن الاستواء فقال مقولته الشهيرة: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

ونُقل عن **الإمام** أبي حنيفة النعمان إثبات العلو لله تعالى فوق عرشه، وكفْرُ من أنكر ذلك.

كما أشار الإمام أحمد بن حنبل إلى أن الاستواء يُفهم كما ذكر الله في كتابه، ولا يخضع لتصورات البشر.

كل ذلك **مع** تنزيه الله عن التجسيم والتشبيه، فقد أجمع أئمة السلف (كالإمام الشافعي وغيره) على أن إثبات الاستواء لله لا يعني الجلوس، أو الاستقرار المادي كاستقرار المخلوقات، بل هو علوٌّ يليق بجلال الله وعظمته.

يذكر الإمام البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ الآية تأتي رداً على كبر المشركين الذين قالوا في الآية السابقة: (وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا). فجاءت هذه الآية لتعرّفهم بالرحمن عياناً من خلال آثاره الشاهدة.

ويؤكد ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) أن الموصول {الَّذِي} في محل جر صفة لـ(الرَّحْمَنِ) الوارد في قوله: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ). فالسياق سياق "توكل" على رب موصوف بـ كمال القدرة (خلق السماوات) وكمال الرحمة (الرحمن).

ويرى ابن تيمية - رحمه الله - أنّ التعبير بالاسم الموصول (الَّذِي) يفيد التفخيم والتعليل، أي: توكّل عليه لأنه هو الذي خلق.

أمّا بنية (وَمَا بَيْنَهُمَا): يشير شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - في تفاسيره ومجموع الفتاوى إلى أنّ ذكر "ما بينهما" دلالة على إحاطة القيومية والتدبير لكل العوالم الخفية والظاهرة، فليس الخلق مجرد سقف وأرض، بل هو فضاء ممتد مشحون بالآيات والمخلوقات التي لا يعلمها إلاّ هو.

كما أنّ الالتفات الأسلوبي: في الآية التفات لطيف؛ بدأ بضمير الغائب في صفة الخلق {خَلَقَ}، ثم أظهر الاسم الشريف {الرَّحْمَنُ} لتربية المهابة وإيقاع الإيمان في قلوب السامعين.

الحصر والقصر التقديري: تقديم المفعول به في المعنى (السماوات والأرض) في سياق العظمة يفيد تفرد الخالق بالربوبية.

وعن بلاغة ذكر الاسم {الرَّحْمَنُ}: يبيّن الإمام ابن القيم – رحمه الله - في مدارج السالكين وبدائع الفوائد ملمحاً باهراً هنا، فيقول: لم يذكر اسماً آخر مثل "العزيز" أو "القهار" مع خلق السماوات والأرض، بل اختار {الرَّحْمَنُ}؛ ليبين أن الخلق مبني على الرحمة، وأن السماوات والأرض ما قامتا ولا استقرتا إلا برحمته وفضله، فالخلق أثر من آثار الرحمة.

الاستئناف البياني: جملة (الرَّحْمَنُ) إما أن تكون بدلاً من الموصول، أو خبراً لمبتدأ محذوف (هو الرحمن)، وهو أسلوب يفيد التمجيد العالي والثناء الذاتي.

وأبا البا في (فاسأل به): قيل: الباء بمعنى "عن"، أي: فاسأل عنه خبيراً، قال الكلبي: يقول: فاسأل الخبير بذلك، يعني: بما ذكرت من خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش. وقيل: الباء للسببية أو الاستعانة، أي: فاسأل بسببه وبسبب معرفتك بآياته خبيراً يوضح لك تفاصيل عظمته.

فما المقصود بـ (خبيرا)، من هو الخبير؟ الرأي الأول: هو الله جل وعلا، أي: إن أردت تمام العلم بصفاته وأسمائه فاسأل الله الخبير بذاته، وسؤال الله يكون بتدبر كتابة وسؤال وحيه.

الرأي الثاني: هو الرسول ﷺ أو من أوتوا العلم من الأنبياء والعلماء الربانيين.

والجمع الرأيين سائغ؛ فالله هو الخبير المطلق، وسؤال خلقه العالِمين به يوصل إلى معرفته.

الهيبة الكونية: يأخذنا سيد قطب – رحمه الله - (في ظلال القرآن) إلى فضاء التصوير الحركي للآية، فيقول إن ذهن المسلم يتسع وهو يتأمل (السماوات والأرض وما بينهما) ليرى هذا الكون الهائل منبثقاً عن الإرادة الإلهية، ثم يستشعر المسلم

الطمأنينة لأن هذا الكون العظيم محكوم برحمة (الرَّحْمَنُ) وليس بقوى عمياء أو آلهة متصارعة.

أمّا الأستاذ محمد قطب – رحمه الله – فيركز في كتبه التربوية على قوله (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا) باعتباره دليلاً على "منهجية العلم في الإسلام".

الإسلام لا يقبل الجهل ولا الظن في العقيدة، بل يوجه الإنسان إلى البحث، والمساءلة، واللجوء إلى أهل الخبرة والعلم الراسخ، لبناء إيمان قائم على الوعي والبصيرة لا التقليد الأعمى.

خلاصة القول في الآية: إن الآية تقودنا في رحلة تبدأ من الكون المنظور (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، لتمر بـالقلب الموصول برحمة ربه (الرَّحْمَنُ)، والذي لم يعذبهم ولم يؤاخذهم على قولهم (وما الرحمن)، بل استأنى بها وأمهلهم كما طلب رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتنتهي بـالعقل المسؤول الباحث عن الحقيقة والعمق (فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا). فهي تجمع بين دلالة الخلق (القدرة)، ودلالة الوصف (الرحمة)، ودلالة المنهج (العلم والخبرة).

*﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾

ختم السياق بذكر اسم الله ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ والاستواء على العرش، وفي ذلك مقابلة لجحودهم الكالح ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ (تجاهلاً واستكباراً) بإصدار الأمر بالسجود.

الختام المشهدي: النفور والأنفة من السجود للرحمن هو بؤرة الداء الداخلي الذي أشار له السياق من البداية: اتخاذ الهوى إلهاً والاستكبار عن الحق.

الخلاصة: تنتظم الآيات في نسق بديع يُحقق المقصد الأساسي لسورة الفرقان: التحذير التاريخي: عبر مشاهد العذاب السريعة لمكذبي الرسل.

التشخيص النفسي: سقوط الإنسان في عبادة الهوى واختلال معاييره، والعرض الكوني: التذكير بآلاء الله (الظل، الليل، الرياح، البحار، خلق الإنسان) لربط القلب بالخالق.

التسلية والدعوة: أمر النبي ﷺ ومؤمني كل عصر بالثبات والتسلح بـ الجهاد الكبير (القرآن) والتوكل على الحي الذي لا يموت.

*(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62) وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ

لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا(67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا(77))

هذه الخاتمة العظيمة من سورة الفرقان هي ذروة السورة والغاية التي تُساق إليها مقاصدها. فبعد أن افتُتحت السورة بتمجيد الله على تنزيل الفرقان، وعَرَضت لشُبهات المكذبين ومواقفهم العنيفة، تُختتم هذه الملحمة الإيمانية ببيان الآيات الكونيّة العظمى، ثم يرسم القرآن لوحة إيمانية ناصعة لـ «عباد الرحمن»؛ نموذج الإنسان الذي يصنعه هذا الكتاب، لتنتهي ببيان قيمة الإنسان ومكانته عند ربه.

مقدمة كونية (المشهد العظيم): *﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾

السياق والربط: افتُتحت السورة بـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، وتُفتتح هذه الخاتمة بـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾؛ ليقع الربط بين هداية الفرقان للأنفس وهداية النجوم والكواكب للآفاق. "تبارك" عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال معناه: جاء بكل بركة، وقال الضحاك: تعظّم، كما سبق.

(بروجًا): قال الحسن ومجاهد وقتادة: البروج: هي النجوم الكبار، سميت بروجا لظهوراً، وقال عطية العوفي: (بروجاً) أي قصورا فيها الحرس، كما قال تعالى: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ) [النساء:78]، وقيل: منازل الكواكب والنجوم العظام (أو المجرات)، سراجًا وقمرًا منيرًا: وصف الشمس بالسراج (مصدر الضوء والحرارة المشتعل) ووصف القمر بـ "منير" (انعكاس ضوئي ذو بهاء ولين). والتنكير للتفخيم والتعظيم.

*﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، (خِلْفَةً) قال ابن عباس والحسن وقتادة: يعني خلفا وعوضا، يخلف بعضها بعضا، أي يخلف كلٌّ منهما الآخر تعاقباً، فمن فاته عمله في أحدهما فضاه في الآخر، وقال ابن زيد: أي يتعاقبان.

يعقب ابن القيم – رحمه الله - على تنوع الطاعات بمرور الليل والنهار، بأن الله جعل هذا التعاقب ميداناً يستدرك فيه العبد ما فرّط فيه، فمن فاته عمل بالليل استدركه بالنهار، ومن أجدب في ساعاته وجد في المقابلة ربيعاً.

الفرق البياني: بين ﴿يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكر ويتعظ، (نظر وتأمل عقلي قلبي) و﴿أَرَادَ شُكُورًا﴾ قال مجاهد: أي شكر نعمة ربه عليه فيهما (حركة عمل وثناء باللسان والجوارح).

ملامح مدرسة "عباد الرحمن" (السمات النفسية والسلوكية): يرى سيد قطب – رحمه الله - أنّ السياق ينقلنا هنا من صرح الكون الكبير إلى صرح الروح الإنسانية العظيمة؛ فالعباد المقربون هم صورة الفرقان الحية التي تمشي على الأرض.

*﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

الإضافة والتشريف: إسناد العباد إلى اسم الله ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دون غيره؛ إشارة إلى أنّ الرحمة صبغت أرواحهم، وأن سكنيتهم وسكينتهم تستمد من هذا الاسم العظيم.

الأسلوب: "هَوْنًا" مصدر في موضع الحال؛ أي سكينةً ووقاراً دون كبر ولا تماوت.

- وهذا لا ينافي ما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً مظهرًا للنسك متماوتاً، خافضاً رأسه أو متثاقلاً في مشيته، فخفقه بالدرة (ضربه خفيفاً) وقال له: «لا تمت علينا ديننا أماتك الله!» وفي رواية أخرى: «ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض». فالمشي هوناً غير هذا.

﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؛ ليس المراد التسليم المعهود للتحية، بل هو قولٌ سالمٌ من الإثم والجهل، ترفعاً عن الخوض في السفاهة، وهو ضبط للانفعالات وعلوٌ نفسيّ.

وهذا قريب من قوله عمن أسلم من أهل الكتاب *(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) [القصص:55].

*﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾، المقابلة البلاغية: بعد أن بيّن حالهم مع الناس في النهار (المشي بالهون والرد بالسلام)، بيّن حالهم مع الله في خلوة الليل.

(يَبِيتُونَ) تقتضي التلبس بالعبادة في أوقات البيات (الليل). وقدّم ﴿سُجَّدًا﴾ على ﴿قِيَامًا﴾ لبيان أن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو الغاية في الخضوع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أقرَبُ ما يَكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ؛ فأكثِروا الدُّعاءَ[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من صلى بعد العشاء الآخر ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجداً وقائما.

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن صلى العشاءَ في جماعةٍ كأنما قام نصفَ ليلةٍ، ومَن صلى الصبحَ في جماعةٍ فكأنما صلى الليلَ كلَّه[2].

*﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

التأمل النفسي: لم يداخلهم العُجب بسجودهم وقيامهم وممشاهم الصالح، بل يغلب عليهم الخوف والوجل؛ يُحسنون العمل ويخافون عدم القبول.

(غَرَامًا): أي ملازماً دائماً لا يفارق، كالضمان المالي الذي يلزم صاحبه، (مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا): مستقراً للمؤقتين، ومقاماً للخالدين، فهي سيئة في الحالتين.

*﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، الميزان المالي والاجتماعي: التوازن والوسطية (العدل).

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِسْرَافُ النَّفَقَةُ فِي معصية الله وإن قلت، والإقتار مَنَعُ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَقَالَ الْحَسَنُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَمْ يُنْفِقُوا فِي مَعَاصِي اللَّهِ وَلَمْ يُمْسِكُوا عَنْ فَرَائِضِ اللَّهِ. وَقَالَ قَوْمٌ: الْإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْإِنْفَاقِ، حَتَّى يدخل في حد التبذير، والإقتار التَّقْصِيرُ عَمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لَا يُجِيعُهُمْ وَلَا يُعَرِّيهِمْ وَلَا يُنْفِقُ نَفَقَةً يَقُولُ النَّاسُ قَدْ أَسْرَفَ، {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: 67] قَصْدًا وَسَطًا بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ، حسنة بين السيئتين[3].

إشراقة بلاغية: "قَوَامًا" (بفتح القاف) أي وسطاً وعدلاً بين طرفي المذمومَيْن (الإسراف والتقتير).

إسلامية النهج تستوعب متطلبات الحياة المالية؛ فالصلاح ليس زهداً جافاً يُعطل الإنفاق، ولا تبذيراً يدمّر اقتصاد الفرد والمجتمع.

---

(1) – أخرجه مسلم (482) من أفراد مسلم على البخاري.
(2) – أخرجه مسلم (656) باختلاف يسير.
(3) –البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص856)

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: تصدقوا فقال رجلٌ يا رسولَ اللهِ عندي دينارٌ قال تصدق به على نفسِك قال عندي آخرُ قال تصدق به على زوجتِك قال عندي آخرُ قال تصدق به على ولدِك قال عندي آخرُ قال تصدق به على خادمِك قال عندي آخرُ قال أنت أبصرُ[1].

*﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾

الترتيب التصاعدي والتحذيري: تنـزيه العباد عن الكبائر العظام: الشرك: فساد العقيدة والصلة بالخالق.

القتل: فساد العمران والاعتداء على الحياة، الزنا: فساد الأعراض والأنساب والأسرة.

إشراقة في بلاغة التنكير: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾؛ "أثاماً" نكرة للتفخيم والتهويل، وهو وادٍ في جهنم أو جزاءُ إثمٍ عظيم.

التأكيد الأسلوبي: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ... وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ نكرة الهوان هنا للمبالغة في خزي المجرم المقترف لهذه الكبائر.

*﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾

الاستثناء والرحمة: فتح باب الأمل بعد التهديد والوعيد.

كيف تُبدل السيئات حسنات؟ جاء عن ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله: في الدنيا: يُبدل الله ملكة الشر في النفس بملكة الخير (البخل جوداً، والزنا عفة، والشرك إيماناً).

وفي الآخرة: بفضل التوبة النصوح الندمية، تُحوّل ذنوبهم المكتوبة في الصحف إلى حسنات لصدق التوبة.

*﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ للتأكيد على جلالة شأن التوبة، وأن المرجع والملجأ الحق هو الله وحده.

*﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾: (لا يشهدون الزور): لا يحضرون مجالس الباطل والشرك والغناء الماجن والضرار، ولا يشهدون شهادة الزور.

---

(1) –أخرجه أبو داود (1691)، والنسائي (2535)، وأحمد (7413) باختلاف يسير، والبزار (8490) واللفظ له، وقال في الدرر السنية عن سنده: صحيح.

قال الضحاك وأكثر المفسرين: الزور يعني: الشرك، وقال علي بن طلحة: يعني شهادة الزور.

وقوله سبحانه: (مَرُّوا كِرَامًا): الكرم هنا هو الترفع والتسامي النفسي؛ إذا واجهوا مجالس اللغو والعبث لم يشاركوهم، بل مروا معرضين بتكرم ونزاهة، وقال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا.

*﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، البلاغة والأسلوب: استعمال النفي ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ لإثبات نقيضه؛ أي بل يخرون عليها أذاناً سامعة وعيوناً باصرة وقلوباً واعية.

التأمل: شتان بين الإيمان الواعي القائم على الفهم والتأثر الرقيق، وبين التظاهر الشكلي أو الجمود الكاذب. المؤمن حَيُّ القلب يتأثر بالقرآن فور سماعه.

*﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

إشراقة بلاغية: قُرَّةَ أَعْيُنٍ: مأخوذة من "القَرّ" وهو البرد، لأن عين الفرحان تكون دمعتها باردة، أو من الاستقرار (تقر العين فلا تطمح إلى غيره لشرف ما ترى).

(واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا): لم يطلبوا أن يكونوا مأمومين فقط بل قدوات يقتدى بهم في الخير، وهو قريب من دعاء موسى عليه السلام: (فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) [الأعراف:143]، وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [النحل:120]، أي إن نبي الله إبراهيم كان إماما في طاعة ربه والاستسلام له، جامعاً لخصال الخير والهدى، فالمؤمن يدعو الله أن يكون كذلك، تأسيا بأنبياء الله ورسله، ليكون معهم في الجنة.

وفي هذا عمق الطموح الإيماني كما ذكر ابن عاشور – رحمه الله -: علو الهمة لدى المؤمن؛ لا يكتفي بصلاح نفسه، بل يمتد طموحه لصلاح أهله وبيته، ثم ليبلوغ المرتبة العالية بأن يكون قدوة يُهتدى بها.

الخاتمة والجزاء (المشهد الأخير): *﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

اسم الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾: للتعظيم والبُعد الرتبي، تمييزاً لهم عن باقي الخلق، (الْغُرْفَةَ): المنازل العالية المرتفعة في الجنة، أو هو اسم من أسماء جنة الفردوس والتي هي أعلى الجنة وسطها كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن صَلَّى الصَّلَواتِ الخَمسَ، وحَجَّ البَيتَ، وصام رَمضانَ -ولا أدري أذَكَرَ الزَّكاةَ أم لا؟- كان حَقًّا على اللهِ أنْ يَغفِرَ له إنْ هاجَرَ في سَبيلِه، أو مَكَثَ بأرضِه التي وُلِدَ بها، فقال

مُعاذٌ: يا رسولَ اللهِ، أفأُخبِرُ النَّاسَ؟ قال: ذَرِ النَّاسَ يا مُعاذُ، في الجنَّةِ مِئةُ دَرَجةٍ، ما بيْنَ كلِّ دَرَجتَينِ مِئةُ سَنةٍ، والفِردَوسُ أعلى الجنَّةِ وأَوسطُها، ومنها تَفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ، فإذا سَأَلتُم اللهَ فاسأَلوه الفِردَوسَ[1]. ومعنى قول معاذ رضي الله عنه: أفأخبر الناس: أي أفلا أبشر الناس

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن آمَنَ باللهِ وبرَسولِه، وأقامَ الصَّلاةَ، وصامَ رَمَضانَ؛ كان حَقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجَنَّةَ، جاهَدَ في سَبيلِ اللهِ، أو جَلَسَ في أرضِه التي وُلِدَ فيها، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفَلا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قال: إنَّ في الجَنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ، ما بينَ الدَّرَجَتَينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سَألتُمُ اللهَ فاسألوه الفِردَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجَنَّةِ وأعلى الجَنَّةِ -أُراه- فوقَه عَرشُ الرَّحمَنِ، ومِنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ[2].

(بِمَا صَبَرُوا): الباء سببية؛ فالصبر هو المحرك الأساسي لكل الصفات السابقة (صبر على طاعة الله، صبر عن معصية الله، صبر على أقدار الله، وعلى أذى الجاهلين.

المقابلة البلاغية مع الآية: قال عن النار ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، وقال عن الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، ختام السورة، (مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي): أي: ما يبالي بكم ولا يجعل لكم وزناً ولا قدرًا.

عن أنس بن مالك رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللهَ قبض قبضةً فقال: هذه إلى الجنةِ برحمتي، وقبض قبضةً فقال: هذه إلى النارِ ولا أُبالي[3].

قوله تعالى: (لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ): لها وجهان في التفسير: قيل: عبادتكم وإيمانكم بالله (المصدر مضاف للفاعل)؛ أي: لولا إيمانكم وعبادتكم لما بالى الله بكم.

أي: ما خلقتكم ولي إليكم حاجة، إلاّ أن تسألوني فأعطيكم، وتستغفروني فأغفر لكم.

وقيل: لولا دعوة الله إياكم ورسله لكم (المصدر مضاف للمفعول)؛ أي: لولا دعوة الله لكم للحق لما أقام لكم وزناً.

---

(1) –أخرجه الترمذي (2530) باختلاف يسير، وابن ماجه (4331) مختصراً، وأحمد (22087) واللفظ له، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده.

(2) –أخرجه البخاري(2790)

(3) –أخرجه ابن خزيمة في ((التوحيد)) (186/1)، وأبو يعلى (3453)، والبيهقي في ((القضاء والقدر)) (63) باختلاف يسير، وصحح الألباني إسناده.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ إعرابها واحد لا يتغير على التفسيرين المذكورين لمعنى "الدعاء"؛ فهي جملة استئنافية (أو تعليلية) لا محل لها من الإعراب، والفاء فيها هي الفاء الفصيحة أو الرابطة لجواب شرط مقدر.

الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر أو فصيحة (التقدير: إذا علمتم أن الله لا يبالي بكم إن لم تبتلوا بعبادته أو طاعته، فقد كذبتم الداعي/الحق).

(قَدْ): حرف تحقيق مبني على السكون، (كَذَّبْتُمْ): فعل ماضٍ مبني على السكون لاتصاله بتاء الفاعل، و(التاء) ضمير متصل مبني على الضم في محل رفع فاعل، و(الميم) لجمع الذكور.

لكن يتغير توجيه المعنى على التفسيرين: على تفسير (الدعاء) بالتضرع والعبادة (وخطاب المؤمنين أو المشركين بمعنى العبادة): تكون الجملة تعليلاً لانتفاء المبالاة بهم لعدم وجود العبادة الحقة المقترنة بالإيمان، وبأنكم إن وجدتم بلا عبادة فتكذيبكم واقع.

أمّا على تفسير (الدعاء) بمعنى (الدعوة إلى الإسلام) (أي دعوة الله أو رسوله لكم): يكون المصدر (دعاؤكم) مضافاً إلى مفعوله (أي دعاؤه إياكم)، وتكون جملة (فقد كذبتم) تفريعاً ومواجهة لهم بأنهم كذبوا ما دُعوا إليه.

(فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا): أي سوف يكون العذاب والعقاب ملازماً لكم لا محالة بسبب تكذيبكم.

وَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وأسر سبعون. وهو قول عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومجاهد، ومقاتل، يعني: أنهم قتلوا يوم بدر، واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم. وعن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام، وَقِيلَ: اللِّزَامُ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ[1].

هكذا تترابط هذه الخاتمة لتُقدّم النموذج المتكامل للشخصية المسلمة: عقيدة وسلوك: توحيد لله، وتواضع مع الناس، وروحانية وحركة: قيام بالليل، وسعي وعمران بالنهار.

توازن ونضج: لا إسراف ولا تقتير، لا غلو ولا جفاء، زهمّة ورويّة: صلاح الفرد، وصلاح الأسرة، وإمامة الأمة في التقوى.

*

(1) –أخرجه البخاري(4825) ، ومسلم (2798) والبغوي : تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص858)

*

سورة الشعراء

تسمية السورة

(سورة الشعراء): وهو الاسم الأشهر والأكثر تداولاً في المصاحف وكتب التفسير والحديث، سُميت بذلك لاختصاصها بذكر كلمة الشعراء في أواخرها وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه منهم، في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

كما يطلق عليها (طسم الشعراء) لتمييزها عن (طسم القصص)، وذلك لافتتاحهما بهذه الثلاث حروف المقطعة.

وهي سورة **مكية** في قول أكثر العلماء، ما عدا بعض آياتها فقد قيل في بعضها أنها نزلت في المدينة كما سوف يأتي إن شاء الله.، أما عدد آياتها فهو 227 في عد مدرسة الكوفة والشام وعد مدرسة المدينة الأول، وهي 226 في عد مدرسة المدينة الأخير، ومكة والبصرة، والله أعلم.

سبب النزول

لم يرد سبب نزول، ولكن جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ إلى قوله وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ فنُسخ من ذلك واستثنى فقال إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا إلى قوله يَنْقَلِبُونَ ؤ

قال في الدرر السنية: وفي هذا الحديثِ يَقولُ عَبْدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما في قولِه تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) أي: والغاوونُ هم السُّفهاءُ أَهْلُ الغَوايةِ- وهي الضَّلالُ والفَسادُ- وهم الذين يتَّبعون الشُّعراءَ ويُحبُّونَ كلامَهم ويَنقُلونَه عنهم، وهذا كلامٌ عامٌّ وتحذيرٌ لكُلِّ الشُّعراءِ؛ لأنَّهم يقولونَ ما لا يَفْعَلون، ويَخوضونَ في أحاديثِ الفِسْقِ والشَّرِّ، "فنُسِخَ مِنْ ذَلِك"، أي: فَرُفِعَ هذا الحُكْمُ وأُلْغِيَ، بقولِه تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا)]الشعراء: 227 [، أي: إنَّ الشُّعراءَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وقالوا الشِّعْرَ الحَسَنَ وذَكَروا اللهَ في أقوالِهم وأَفْعالِهم، ولم يَشْغَلْهم الشِّعْرُ عنِ الطَّاعاتِ والقرآنِ، هؤلاء ليسوا مِن الَّذين يتَّبِعُهم الغاوون، ولا يَشْمَلُهم التَّحذيرُ الأوَّلُ. قلت: النسخ هنا يعني التخصيص.

وفي الحديثِ: بيانُ أنَّ الشُّعراءَ أنواعٌ وأقسامٌ، فمَنْ أساء في قولِه وشِعْرِه وَقَعَ عليه التَّحذيرُ والإثمُ، ومَنْ أَحْسَنَ واتَّقى فلا إثمَ عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

*(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ

مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ(22)).

هذه الافتتاحية المباركة من سورة الشعراء هي مأدبة بيانية، ولحمة سياقية جاءت لتهيئة النبي صلى الله عليه وسلم وقارئ القرآن من بعده لتأمل هذه السورة الجامعة التي جمعت قصص ثلة من الأنبياء: موسى وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب مع الدروس المستفادة، مع شحذ همم المسلمين للانشغال بالحق فإن في الحق لشغلاً عن ترهات الغاوين.

*﴿طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: الحروف المقطعة (طسم): قرعٌ للأسماع بأصوات متباعدة المخارج (الطاء من نطع الحنك، والسين من الأسنان، والميم من الشفتين) لإظهار الإعجاز؛ فهذا القرآن منظوم من جنس هذه الحروف التي تتكلمون بها.

كما أنّ الإشارة بالبعيد (تِلْكَ): اسم إشارة للبعيد للتعظيم ورفع مكانة الآيات، ويأتي الوصف بـ (الْمُبِينِ): اسم فاعل يجمع بين اللزوم والتعدية؛ فهو في ذاته "بيّنٌ" واضح، وهو "مُبِينٌ" لغيره من الحقائق والشرائع.

بدأت السورة بالحديث عن القرآن وإعجازه لتثبيت قلب النبي ﷺ مواجهة لموقف المشركين المعاندين.

ذكر ابن عاشور – رحمه الله – أنّ هنا تنبيه إلى أن الكتاب صار بليغاً ظاهراً لا يحتاج إلى كلفة للوصول إلى معانيه، فتكذيبهم له ناتج عن العناد لا عن الخفاء.

أمّا سيد قطب – رحمه الله- فركز على أنّ الافتتاحية تهز الوجدان، وترفع الشك عن مصدر هذا القرآن، وتستحضر عظمة هذا الوحي في مطلع سورة تتناول صراع الحق والباطل.

*﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، إشراقة بلاغية: اللفظ (بَاخِعٌ): البخع هو قتل النفس غمّاً أو إهلاكها من الشدة والتأسف. جاء بأسلوب اسم الفاعل المؤكد لاستغراق هذه الحالة لنفسه الشريفة ﷺ.

الإنشاء (لَعَلَّكَ): خرجت "لعل" هنا مخرج الشفقة والترفق، كأنها نهي بلطافة ورحمة من الله لرسوله.

في الآية تصوير الحالة النفسية، حيث تبرز الآية مشاعر النبي ﷺ الحريصة أشد الحرص على هداية قومه والناس جميعا، حتى أوشك الحزن أن يقتله. إنها رحمة القيادة والرسالة التي تتألم لإعراض الخلق عن نجاتهم.

وينبه البقاعي – رحمه الله - إلى الملاءمة بين "الباخع" وبين السورة؛ فالنبي ﷺ يرى كفرهم هَلاكاً لهم، فيتألم حتى يكاد يَهْلِك، فنبهه ربه إلى أن الهداية ليست بيده إنما هي بيد الله.

*﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾، إشراقة بلاغية: الشرط والجزم (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ): يدل على القدرة المطلقة؛ فالإيمان القسري مقدور لله، لكنه ينافي حكمة "التكليف والإرادة الإنسانية".

التعبير بـ (فظلت أَعْنَاقُهُمْ لها خَاضِعِينَ): هنا ما يسميه البلاغيون مجازاً مرسلاً أي: إطلاق الجزء وإرادة الكل، وجمع "خاضعين" بالجمع المذكر السالم للظاهر من العقلاء (الأشخاص أصحاب الأعناق) تأكيداً لذلهم وانقيادهم القهري لو نزل خرقُ العادة.

عند ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله -: حكمة الابتلاء والابتلاء بالإيمان الغيبي؛ فالله لم يرد من العباد خضوع الاضطرار والقهر الذي تشخص له الأعناق، بل أراد "خضوع الاختيار والإنصات للحق" بدليل العقل والبرهان.

أمّا سياق السورة: فهو ردّ على طلب الكفار المعجزات القاهرة؛ فلو جاءت الآية القاهرة لزالت فائدة التكليف والاختيار.

*﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، الإشراقة البلاغية: النفي والاستثناء (وَمَا ... إِلَّا): يفيد الحصر والاستغراق، أي أن شأنهم الدائم والمستمر هو الإعراض.

أمّا الوصف بـ (مُحْدَثٍ): أي جديد التنزيل في نزوله وتذكيره، وليس المقصود حدث الذات، بل تجدد نزول الآيات وتواليها ليوقظ قلوبهم.

إظهار اسم (الرَّحْمَٰنِ): لم يقل "من ربهم"، بل اختار "الرحمن" للتقريع البليغ؛ فالذكر تنزّل رحمةً بهم، وهم يقابلون هذه الرحمة بالإعراض!

بيّن ابن عاشور – رحمه الله - أنّ تجدد الذكر كان مقتضاه أن يجددوا النظر والاعتبار، لكن استمرار إعراضهم يدل على تمكن الخذلان من نفوسهم.

ويتجلى جحود الإنسان – كما بين سيد قطب رحمه الله - حين تتنزّل عليه رحمات السماء وتذكيرها المستمر، فيغلق منافذ قلبه ويولي مدبراً.

*﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، الأشراقة البلاغية: الترتيب والتدرج: بدأ بـ (مُعْرِضِينَ) في الآية السابقة، ثم ارتقى إلى (فَقَدْ كَذَّبُوا)، ثم (يَسْتَهْزِئُونَ)؛ فالإعراض يورث التكذيب، والتكذيب يورث الاستهزاء والتطاول، ليبين استحقاقهم ما يستحقونه.

السين في (فَسَيَأْتِيهِمْ): حرف استقبال يفيد التهديد والوعيد المحقق القريب وإن تراخى زمنه.

إطلاق (أَنبَاءُ): الأنباء هي الأخبار العظيمة، والمقصود عواقب تكذيبهم وعذابهم في الدنيا والآخرة.

الفاء في (فَقَدْ) لترتيب العلة؛ لما أعرضوا تحول إعراضهم إلى تكذيب علني واستخفاف، فحقّ عليهم وعيد العذاب الذي كانوا يستبعدونه.

السنن الإلهية: الاستهزاء بالحق لا يلغيه، بل يقرّب لحظة الاصطدام بالحقيقة والعقاب الإلهي.

*﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، إشراقة بلاغية: الاستفهام الإنكاري (أَوَلَمْ يَرَوْا): يتضمن التعجيب من عمى أبصارهم وبصائرهم عن دلائل القدرة المحيطة بهم.

اللفظ (زَوْجٍ كَرِيمٍ): "الزوج" الصنف والنوع المقترن بغيره، و"الكريم" الحسن الكثير النفع والخير.

النقلة السياقية: نقلهم القرآن من العناد والطلب المعجز للغيب إلى النظر في "كتاب الكون المفتوح".

ويبيّن ابن القيم – رحمه الله -: أنّ هنا الاستدلال بالنبات على إعادة الخلق والبعث؛ فالذي أحيا الأرض الميتة بالنبات الكريم قادر على إحياء القلوب وإحياء الأجساد بعد موتها.

أمّا محمد قطب – رحمه الله – فيرى أنّ التعبير بـ "زوج كريم" يلفت الحس الإنساني إلى جمال الجمال في الطبيعة والتناسق المبدع في الخلق الذي ينطق بوجود الصانع ورحمته.

*﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، إشراقة بلاغية: جاء التأكيد بـ (إنَّ) و(اللام): للرد على إنكارهم وعماهم عن رؤية الحق.

والجملة المنفية (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ): بيان للواقع التاريخي والإنساني؛ أن الكثرة غالباً ما تتنكب طريق الحق لاتباع الهوى.

ومن اللطائف السياقية والتفسيرية: التكرار المظهري في السورة: هذه الآية ، والتي بعدها، هما "الفاصلة والترجيعة" لتسلية للرسول ﷺ، وستتكرر في السورة بعد كل قصة نبي (قصة موسى، إبراهيم، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب).

ويوضح البقاعي – رحمه الله – إنّ في هذا التكرار بهذه الفاصلة إشارة إلى أن الخلل ليس في "الآية" والدليل، بل في "المحل" القابل؛ فالأدلة ساطعة لكن أكثرهم حُرِموا التوفيق بسبب إعراضهم.

*﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، إشراقة بلاغية: اقتران الصفات (الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ): مقترنان بتأكيد بليغ (إنَّ، اللام، ضمير الفصل هُوَ).

والبلاغة في اسميه سبحانه: "العزيز" الذي لا يغالَب والقادر على انتقام المعاندين، "الرحيم" بمن آمن، ومهل العاصي فلا يعاجله بالعقوبة.

يرى ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله -: أنّ جمع الصفات هنا هو جماع كمال الأفعال الإلهية؛ فعزته ليست عزة بطش مجرد، بل مقترنة بالرحمة، ورحمته ليست عن عجز بل مقترنة بالعزة والقدرة.

السياق فيه تسلية للرسول ﷺ؛ فإن ربه العزيز ينصره على أعدائه، والرحيم به وبالمؤمنين فلا يكلهم إلى أنفسهم.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۚ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، إشراقة بلاغية

البدء بـ (وَإِذْ): التقدير: واذكر إذ نادى؛ للانتقال إلى العرض القصصي التطبيقي للسنن الإلهية.

الوصف قبل التسمية: وصفهم بـ (الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أولاً لبيان السبب الموجب لإرسال الرسول، ثم عيّنهم بـ (قَوْمَ فِرْعَوْنَ) للبدل والإيضاح.

التحضيض والترجي (أَلَا يَتَّقُونَ): العرض بـ "ألا" يفيد التلطف والاستحثاث على التقوى قبل نزول العذاب.

بدء القصص بموسى عليه السلام: لأن قصته مع فرعون هي الأعظم تمثيلاً لصراع الحق والباطل، والاستكبار مقابل التوحيد.

ويرى سيد قطب – رحمه الله – أنّ هنا تحديد العلة الأساسية لكل طغيان في الأرض، وهي "الظلم" (ظلم العقيدة بالشرك، وظلم العباد بالاستعباد).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، تدرج موسى عليه السلام في بيان مخاوفه وطلبه للمدَد:

التكذيب بالرسالة، الذي ربما أدى إلى ضيق الصدر وحبسة اللسان، ثم صعّد إلى التبعة الجنائية (قتل القبطي) ثم طلب أن يشدّ أزره بأخيه هارون عليه السلام.

إشراقة بلاغية: التفصيل الصريح للمشاعر: موسى عليه السلام ينبسط في الدعاء ويرفع إلى ربه ضعفه البشري وطبيعة جبلّته (ضيق الصدر، العقدة في اللسان، خوف القتل).

كما إنّ إطلاق لفظ (ذَنبٌ): سمى قتله للقبطي خطأً "ذنباً" بناءً على زعمهم وتسميتهم هم، أو من باب خضوع العبد لله ورؤية تقصيره.

أمّا ابن القيم – رحمه الله – فذكر أنّ اعتراف النبي ببشريه وخصائصه النفسية لا ينافي العطاء النبوي؛ بل يبين أن النبوة فضل إلهي محض يُعطى للضعيف فيقوى بالله.

ويبين محمد قطب رحمه الله فقه القيادة وإعداد العدة؛ فموسى يعلم صعوبة المهمة (مواجهة أعتى طواغيت الأرض)، فيطلب أخاه هارون ليكون عضداً ووزيراً ينطلق بليغاً بالحق.

*﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، إشراقة بلاغية: (كَلَّا): هنا ممكن أن يطلق عليها كلمة تنبيه بما يشبه الردع والزجر حازمة تُبطل كل مخاوف موسى (لن يقتلوك ولن يغلبوك).

التثنية والإفراد والتجميع: (فَاذْهَبَا): خطاب بالثنائية لموسى وهارون (قبل أن يذهب لهارون واقعاً، فهو إجابة فورية لطلبه)، كما في سورة طه: (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ) [طه:36]،

(إِنَّا مَعَكُم): جاء بجمع الذكور (معكم) ليشمل موسى وهارون وفرعون وقومه، أو للمعية الخاصة للمؤمنين والعامة للجميع بالإحاطة.

الصيغة (مُّسْتَمِعُونَ): اسم فاعل يفيد التأكيد؛ واستماع الله معناه العلم والإحاطة والنصرة لأوليائه.

ويبين البقاعي – رحمه الله – أنّه شتّان بين خوف البشر المعزولين وبين المعية الإلهية المطلقة؛ كلمة "كَلَّا" أزاحت كل ثقل الخوف عن قلب موسى.

أمّا سيد قطب – رحمه الله فيجد المعية الإلهية هي الرصيد الأكبر للدعاة؛ حين يعلم الداعية أن الله "معه يستمع ويشاهد"، تتضاءل قوة فرعون وجنده.

*﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾،

إشراقة بلاغية: الإفراد في موضع التثنية (رَسُولُ): لم يقل "رسولا"، لأن رسالتهما واحدة ودينهما واحد، أو لأن "رسول" مصدر يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع.

المطلب المحدد (أَنْ أَرْسِلْ): تحرير بني إسرائيل من الاستعباد هو المحور العملي للرسالة.

ويوضح ابن عاشور – رحمه الله أنّ إتيان فرعون في عقر داره ومواجهته بلقب (رَبِّ الْعَالَمِينَ) هو إسقاط مباشر لالوهيته المزيفة.

البُعد الاجتماعي والسياسي للرسالة: الرسالة السماوية تهدف لتعديل العقيدة (إنا رسول رب العالمين) وتحرير الإنسان من القهر والعبودية (أن أرسل معنا بني إسرائيل).

*﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

إشراقة بلاغية: المنّ والاستعلاء (أَلَمْ نُرَبِّكَ): أسلوب فرعوني طغيانِي يحاول تقزيم قضية موسى وتحويلها من رسالة حق إلى "قضية شخصية وجحود للجميل".

تتجلى هنا مراوغة فرعون اللسانية في سياقات الصراع بين الحق والباطل؛ حيث استعمل "أَلَمْ نُرَبِّكَ" سلاحاً سيكولوجياً لتقويض ونفي أي ربوبية لغيره، وإثباتها لنفسه.

الإبهام والتهويل (وَفَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ): لم يذكر القتل صراحة بل أبهمه للتهويل والتقبيح الشديد، أي: تلك الفعلة الشنيعة.

جاء اللفظ (مِنَ الْكَافِرِينَ): أي الجاحدين لنعمتنا وربوبيتنا عليك، الكفر بالنعمة هنا، أو الكفر بفرعون ودينه.

يقول: ربيناك فينا، فكافأتنا أن قتلت منا نفساً، وكفرت بنعمتنا، وهذا رواية العوفي عن ابن عباس، وقال: إن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر بالربوبية.

أساليب الطغاة: يبين محمد قطب وسيد قطب – رحمهما الله - أنّ المستكبرين حين يعجزون عن ردّ الحق ومقارعة الحجة بالدليل، يهربون إلى شخصنة النزاع، والتذكير بالأفضال، وإثارة الشبهات التاريخية، وإرهاب الداعية بالماضي.

*﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الجاهلين، أي: لم يأتني من الله شيء، وقيل: من الجاهلين بأنّ ذلك يؤدي على قتله.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، رد موسى المحكم وإشراقة بلاغية:

1. الاعتراف بالخطأ غير المقصود (وأنا من الضالين / الجاهلين قبل النبوة).
2. بيان سبب الفرار (الخوف البشري الطبيعي).
3. إثبات الفضل لله وحده (فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين).

الشجاعة والوضوح (فَعَلْتُهَا): لم ينكر موسى الحادثة، بل اعترف بها بشجاعة لأنّ الحق يستلزم الصدق.

معنى (مِنَ الضَّالِّينَ): الجاهلين بعاقبة تلك الضربة، أو الساهين الغافلين قبل أن يأتيني الوحي، وليس الضلال عن التوحيد.

المقابلة البليغة: كافأ فرعون موسى بالتذكير بشرّه الماضي، فقابلها موسى بالتذكير بمنة الله عليه بالحكمة والنبوة الحاضرة.

أشار ابن تيمية – رحمه الله – إلى أنّ الأنبياء معصومون من الإقرار على الخطأ والباطل، ولا تضرهم ذنوبهم أو أخطاؤهم الصادرة قبل النبوة إذا تابوا منها ورفعهم الله بفضله.

*﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، إشراقة بلاغية: الاستفهام الإنكاري المتهكم (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ...): أسلوب تهكم وسخرية بليغة بطلب فرعون؛ كيف تعد تربيتي نعمة وأنت قد استعبدت شعبي وأمتي بكاملها؟

اللفظ (عَبَّدتَّ): جعلتهم عبيداً يسامون سوء العذاب، والسبب الذي جعل موسى يتربى في قصر فرعون هو أصل تنظيم فرعون لذبح أبناء بني إسرائيل!

قمة الذروة في الحجة: فكّك موسى حجة فرعون الباطلة في كلمات معدودة:

التربية في قصرك كانت نتيجة جريمتك (ذبح الأطفال) التي اضطرت أمي لإلقائي في البحر.

لا قيمة لإحسانك إلى رجل واحد (موسى) في مقابل استعبادك وذبحك لأمة بكاملها (بني إسرائيل).

أمّا سيد قطب – رحمه الله – فيركز على الرد المنطقي الحاسم الذي يمثل كبرياء الإيمان؛ فالداعية لا ينخدع بالفتات والإحسان الفردي حين تكون الأمة مقهورة ومسقاة الهوان.

الخلاصة: تنسجم هذه الآيات المبتدأة بالقرآن وآياته والمنتهية بمحاجة موسى لفرعون في إبراز طبيعة المواجهة بين الحق والباطل:

القرآن كتاب مبين: لا يحتاج إلاّ لقلب متجرد للحق، وإعراض المعاندين ناتج عن الاستكبار وليس لغموض الدليل.

الرحمة والحرص النبوي: الداعية يحمل همّ الهداية، لكنه يستمد قوته وثباته من معية الله العزيز الرحيم.

مواجهة الطغيان: الطغاة يلجؤون للمنّ، الشخصنة، والتذكير بالماضي، بينما يواجههم أهل الحق بالحجة الناصعة، وإعادة القضايا إلى أصولها العدلية والعقدية.

*(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ(39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (48) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ(51))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الشعراء هي المشهدا الحي والمكثف لمواجهة من أعظم المواجهات الإيمانية في التاريخ البشري: مواجهة موسى عليه السلام لفرعون.

سورة الشعراء ممكن أن يطلق عليها "سورة الأنبياء الثانية"، وهي تعتمد على المشاهد المحسوسة والتدرج الحجاجي والتأثير النفسي.

الحوار والمحاجة العقلية: *﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، البيان والأسلوب: بدأ فرعون هنا بالاستفهام بـ "مَا" التي تُستخدم لغير العاقل وللسؤال عن الحقيقة والماهية، ولم يقل "مَن". أسلوب يتضمن التجاهل والاحتقار واستبعاد أن يكون هناك ربّ غيره.

وهذا يؤكد إنكاره لربوبية رب العالمين، حيث حاد عنها في المرة الأولى حين قال له موسى عليه السلام (إنا رسول رب العالمين).

اللطيفة السياقية والتفسيرية: فرعون هنا يعامل موسى كأنه يتحدث عن مجهول لا قيمة له – كما بين ابن عاشور – رحمه الله -، ويحاول إظهار الذهول والاستنكار أمام ملئه.

*﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، لا تزال المحاجة بالربوبية، مع تباين قصديهما، فقصد فرعون نفيها، وقصد موسى الاستدلال بها على توحيد الألوهية.

إشراقة بلاغية بيانية: لم يُجب موسى بحدّ الماهية (لأن الله لا تُدرك ماهيته العقول)، بل أجاب بـ آثاره ومظاهر ربوبيته الشاملة (السموات، الأرض، ما بينهما).

وفي كتاب الأصول الثلاثة لمحمد بن عبد الوهاب – رحمه الله - فإذا قيل لك :بم عرفت ربك؟ فقل :بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهما.

والدليل قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [فصلت:37] .

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين) [الأعراف:54]، والرب هو المعبود[1].

1 - محمد بن عبد الوهاب: متن الأصول الثلاثة: (ص1]

النكتة البلاغية: قوله ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فيها تعريض ذكي بفرعون وقومه؛ أي: إن كانت لكم عقول تطلب اليقين وتحكم الدليل فهذا هو ربكم، وفيها تحريك لعقول الحاضرين.

*﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، الحركة المسرحية والأدبية: فرعون لما أحس بصلابة الحجة ومساسها بملكه، تحوّل عن الاستدلال إلى التحريض والاستهزاء.

الأسلوب: "ألا تستمعون؟" استفهام بداعي التعجب والسخرية لتهييج الحاشية (الملأ)، وتأليب الرأي العام ضد موسى ليُوهمهم أن موسى يتكلم بكلام لا يعقله عاقل، كما بين ذلك سيد قطب رحمه الله.

*﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، التزم موسى عليه السلام هدوءه المعتاد في التدرج الحجاجي: موسى عليه السلام ينزل بالحجة من "الآفاق" (السموات والأرض) إلى "الأنفس" (ربكم ورب آبائكم).

الأثر النفسي: فرعون يدعي الألوهية، فذكّره موسى بأن له ولهم آباء مألوفين ماتوا وانقرضوا، فكيف يكون إلهاً مَن أتى بعد أن لم يكن، ومَن سبقه آباءٌ ماتوا؟ هذه اللفتة هدمت كبرياء فرعون ومزقت قناع الألوهية المزيفة، فلجأ إلى الاتهامات الباطلة، (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق).

*﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، لجأ إلى أسلوب المفلس: حين عجز عن رد الحجة العقلية، لجأ إلى التسفيه والسب الشخصي (التهمة الجاهزة للأنبياء: "لمجنون").

إشراقة بلاغية: أتى بإنّ واللام ﴿إِنَّ... لَمَجْنُونٌ﴾ لتقوية الانكار، وشَخَّص الحديث نحو قومه ﴿أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ ليُشعرهم بأن الخطر يستهدفهم هم، لا شخصه فقط!

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، جاء الرد النبوي الحكيم بقلب الطاولة وإثبات أن العقل السليم هو من يهتدي إلى الله، بآياته وأفضاله.

ويلمح ابن القيم - رحمه الله – إلى الثبات والارتقاء في حجة موسى عليه السلام حيث لم ينشغل بالرد على شتمه بـ "الجنون"، بل لمّح بـ(إن كنتم تعقلون) واستمر في محاجمته بأسلوب الاستدلال الشامخ.

إشراقة بلاغية تقطع الحجج السخيفة، حيث انتقل إلى المشرق والمغرب (حركة الشفق والشمس والكون اليومية المنتظمة التي لا يقدر فرعون ولا غيره على تغييرها)، وهي حجة أبيه أبيه إبراهيم عليه السلام حجة من حاجه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة:258].

وفي ذلك من التعريض القاتل ما فيه، حيث اختتم بـ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رداً على اتهامه بالجنون؛ أي: العقل الصحيح يتطلب الإيمان بهذا الرب، والمجنون حقيقةً هو من يتجاهل هذه الحقائق!

المشهد الثاني: الانتقال من العجز إلى القوة والتحدي: *﴿قَالَ﴾ فرعون – حين لزمته الحجة، وانقطع عن الجواب، تكبراً عن الحق ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

انتهت المحاجة بالبراهين العقلية إذن، وانقطع فرعون، وبدأ التحول السلوكي للحيوان الجريح: فرعون سقطت أقنعته الحجاجية تماماً، فالانتقال هنا من المناظرة إلى البطش.

لم يقل "لأسجننك"، بل قال ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾؛ أي لألحقنك بتلك الطائفة المنسية المعذبة في مطامير السجون ليذوق الخوف ويعرف قسوة المصير.

*﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾: الذكاء الدعوي: نقل المعركة من ساحة التهديد والوعيد إلى ساحة البرهان المادي الذي يتطلع القوم إلى رؤيته، مما يحرج فرعون أمام الملأ إن رفض.

*﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: الورطة الفرعونية: أجبره موسى بذوق وأناقة حوارية على القبول والتحدي ليحافظ فرعون على هيئته كرئيس وملك أمام حاشيته.

*﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾، هنا تأتي الصدمة والبلاغة: استخدام ﴿فَإِذَا﴾ الفجائية في الموضعين لنقل سرعة التحول المذهل.

الوصف التفسيري: العصا أصبحت "ثعباناً مبيناً" (حيّة عظيمة واضحة الخلقة ليست تخييلاً أو سحراً)، واليد خرجت "بيضاء للناظرين" (بيضاء ناصعة شعاعية بغير برص ولا مرض، تلفت الأبصار وتغشاها).

*﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

الانقلاب النفسي: المستكبر العتيّ الذي كان يقول قبل قليل "ما أريكم إلاّ ما أرى" ويهدد بالسجن، أصبحت ركبه ترتعد، ويستشير حاشيته ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾!

التجييش القومي: استخدم فزّاعة "الأرض والوطن" ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ليدغدغ مشاعر قومه الخائفين على مكاسبهم.

يمثل قول فرعون (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ) استراتيجية ترهيب خبيثة. يعود هذا القول في جذره التاريخي والسياقي إلى مخاوف فرعون الرؤيوية، ثم وظف طلب موسى (أن أرسل معي بني إسرائيل) كذريعة لتأجيج المشاعر القومية والعنصرية لدى "الملأ" من القبط ضد المستضعفين.

التوظيف الاستراتيجي للخطاب: يشير الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره إلى أن فرعون جعل الخطاب موجهاً "للملأ" من القبط، والمعنيّ به هم "بنو إسرائيل".

كان بنو إسرائيل يمثلون الطبقة العاملة والخدم. وقد استخدم فرعون تقنية التلاعب بالألفاظ والمشاعر، فاستفاد من طلب موسى خروج بني إسرائيل من عبادة العبيد، إلى عبادة رب العبيد، لكن فرعون حرّفه في وعي القبط إلى "إخراجكم من أرضكم".

الدلالة: لم يقل "يخرج بني إسرائيل"، بل قال "يخرجكم" ليجعل الأمر قضية وجودية تهدد القبط جميعاً في كيانهم الاقتصادي والاجتماعي.

في التحليل البلاغي والبياني: التهويل والتخويف وبناء الجملة الاستفهامية (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ): إنّ فرعون -رغم جبروته- اضطرب أمام معجزة العصا، فلجأ إلى الشورى الوهمية مع ملأه ليخفي عجزه. وهو أسلوب بلاغي في الاستعطاف والتكتل واستنفار الطاقات.

باء السببية في (بِسِحْرِهِ): استخدمها فرعون هنا لتوجيه نظر قومه نحو تفسير مادي بحت يتجاهل قوة المعجزة الإلهية.

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهما الله - أن طغيان فرعون وخوفه من زوال ملكه على يد رجل من بني إسرائيل لم يكن وليد اللحظة؛ بل كان مبنياً على تفاصيل رؤياه التي أخبرته بها الكهان. ومن ثمّ، فإن دافعه النفسي الحقيقي لادعاء "الإخراج من الأرض" هو ذلك الرعب الباطني من هلاك ملكه على يد موسى وقومه.

أمّا البقاعي في كتاب "نظم الدرر" فيركز على الوحدة الموضوعية والسياقية. ويرى أن تنوع التعبير بين السور (مثل تقديم فرعون في سورة الشعراء وتصدير الملأ في سورة الأعراف) يخدم السياق النفسي لفرعون؛ فهو في سورة الشعراء مهيمن ومُحَرِّض ومُوَجِّه لخطاب الخوف في نفوس القبط ببراعة.

ويؤكدّ سيد قطب – رحمه الله – (في ظلال القرآن) أنّ فرعون استخدم أسلوب "الحرب النفسية" والدعاية السياسية. لقد قلب الحقيقة: جعل موسى المعتدي الطامع، وقومه هم الضحايا. إنها عملية غسيل دماغ جماعية تقودها السلطة الحاكمة لحشد الجماهير حول الطاغية باسم "الأمن القومي".

كما يُحلل ابن عاشور – رحمه الله - في (التحرير والتنوير) هذا الموقف لفرعون من زاوية لسانية بحتة؛ معتبراً إياه مثالاً على تضليل الرأي العام. فقد عمد فرعون إلى "التخويف الاقتصادي" (إخراجكم من أرضكم) لإلغاء العقول وإجبار القبط على حشد السحرة.

خلاصة: إن ذكر "الإخراج من الأرض" يجمع بين الدافعين معاً في سياق درامي متكامل؛ فهو بناءً على طلب موسى، استغله فرعون ببراعة في شيطنة موسى عليه السلام، وحوّره بأسلوب بلاغي تخويفي (يريد أن يخرجكم)، وهو أيضاً انعكاس لهواجس رؤياه وهلاكه التي تكمن في عقله الباطن وتدفعه للدفاع عن عرشه بأي ثمن.

التناقض الفكري: وصف موسى قبل قليل بـ "مجنون"، والآن يصفه بـ "ساحر عليم"! وهذا شأن الباطل المضطرب.

وهي التهمة الجاهزة لدى جميع الظالمين للأنبياء والرسل: (كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الذاريات:52].

المشهد الثالث: الحشد والتجهيز للمواجهة: *﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

التدبير السياسي للملأ: أشاروا عليه بتأجيل العقاب البدني (لأن قتله سيعطي انطباعاً بصحة حجته) وإقامة مهرجان وطني عام للسحر لإبطال حجته.

الفرق البياني: فرعون قال "ساحر عليم"، وهم قالوا ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ بصيغة المبالغة لرفع الروح المعنوية لدى الملك وفرض الطمأنينة.

*﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ... لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

سياق الحشد الجماهيري: تم اختيار الزمان (يوم الزينة/عيدهم) ليكون المهرجان علنياً ورسمياً.

الهدف التوجيهي للرأي العام: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾؛ الحشد أُسس على توجيه محدد ومسبق لدعم السلطة لا لمعرفة الحق!

*﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

النفعية والسلطة: السحرة مرتزقة يبتغون المال ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، وفرعون يغدق عليهم بالوعود بالمال والمناصب والنفوذ ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

المشهد الرابع: المواجهة وسقوط الأقنعة: *﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾،

الثقة والاطمئنان الإيماني: موسى يتحدث بأسلوب الاستهانة بباطلهم والتحدي الشديد ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، لأنه موقن أنّ الله هو الحق المبين.

*﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، أوج الباطل وزيفه: ألقوا أدوات السحر واستقسموا بفرعون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ (الخضوع الأعمى للمستبد).

*﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، المفاجأة الصاعقة: لم يقل "تأكل"، بل ﴿تَلْقَفُ﴾ (البلع السريع المتتابع العنيف للباطل).

دقة التعبير ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾: الإفك هو الكذب والتخييل، فالعصا الحقيقية أكلت التخييل والخداع والتزوير الذي صنعوه.

*﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

البلاغة النبوية الساطعة:

أمّا السحرة فجاء تصوير استجابتهم ﴿فَأُلْقِيَ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله؛ كأن قوة الحق واليقين خرّرت أجسادهم قهراً وسحبتهم إلى الأرض سحباً بغير شعور منهم!

هؤلاء إذن أهل الاختصاص (السحرة) عرفوا فوراً أن هذا ليس سحراً ولا حيلة، بل هو فعل رب العالمين.

ثمّ خصصوا بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ حتى لا يؤول فرعون قولهم بـ "رب العالمين" على أنه هو!

المشهد الخامس: البطش الفردي والانتصار الروحي: *﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

جنّ جنون الطاغية: فرعون يتوهم أنه يملك حتى "إذن القلوب والأفكار" ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾.

مؤامرة السحر: حاول التغطية على هزيمته بنظرية المؤامرة ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

الوحشية: هدد بالقطع من خلاف والتصليب ليحدث الرعب في قلوب الجميع.

*﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

التحول العجيب: هؤلاء هم السحرة أنفسهم الذين كانوا قبل ساعات يساومون فرعون على "الأجر والمال"!

لمّا لمس الإيمان قلوبهم، انقلب الخوف ثباتاً، والطمع في الدنيا طمعاً في مغفرة الله: ﴿لا ضَيْرَ﴾ (لا مبالاة بالقطع والتصليب والقتل، فالجسم يفنى والروح تتصل بربها).

موقف تاريخي ساطع: أصبحوا في أول النهار سحرة كفاراً مرتزقة، وأمسوا في آخره شهداء بررة أتقياء!"

خاتمة ولطيفة بيانية عامة: السياق كله في سورة الشعراء جاء بقافية (الميم والنون/ الألف والنون) ذات الإيقاع الممتد الهادئ القوي (موقنين، تعلمون، ساجدين، غالبين...) لتستقر معاني الثبات والسكينة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتؤكد أن العاقبة دائماً للحق مهما علا ضجيج الباطل وتهديده.

*(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ(60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(83) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ

حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(104))

تتناول هذه الآيات الكريمات في هذا الدرس من سورة الشعراء مقطعين جللين ينبضان بالحركة والبيان:

قصة خروج موسى -عليه السلام- وقومه وفرعون وجهاده: مشهد الطاغية المتجبر والموقن الموحِد أمام البحر الهادر والعدو الكاسر.

ثم نبأ إبراهيم -عليه السلام- وحجاجه لقومه: مشهد الحجة اللسانية الفطرية والتضرع العبادي الخالص الذي ينتهي باستشراف اليوم الآخر.

المقطع الأول: النجاة والهلاك (خروج موسى بقومه وفرعون بجنوده):
*﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾

السياق والأسلوب: يبدأ المشهد بـ "واو" العطف لربط الأحداث بالدعوة والتكذيب السابق. التعبير بـ ﴿أَسْرِ﴾ يدل على الخروج ليلاً لاستتار القوم. إضافة ﴿بِعِبَادِي﴾ فيها تكريم وإضافة تشريف لبني إسرائيل الذين آمنوا بموسى، وهو هدف موسى الأول الذي طلبه من فرعون وأعلن عنه في أول لقاء (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)، فلما لم يرسلهم فرعون خرج بهم موسى عليه السلام بوحي وأمر من الله جل وتعالى.

إشراق بلاغية: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ جملة اسمية مؤكدة بـ "إنّ"، وهي تعليل وتنبيه إلهي لموسى لِمَ أسرى بهم، ليأخذ بالحيطة والتأهب، وفيها تحذير لطيف يوطئ لما سيحدث لاحقاً.

*﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾، البيان والأسلوب: الفاء عاطفة تفيد التعقيب والسرعة؛ تحرك فرعون المستكبر فور علمه.

﴿حَاشِرِينَ﴾ اسم فاعل بليغ، يدل على استنفار الجند وجامعي الجيش في الأمصار. يقول ابن عاشور – رحمه الله -: استخدام صيغة الجمع بصيغة المبالغة لتهويل الأمر وإبراز القوة الطاغية.

*﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، الإشراقة البلاغية والنفسية الطاغوتية: يرى سيد قطب – رحمه الله- هنا تجلي كبرياء الكاذب، حيث وصف موسى وقومه بأنهم ﴿شِرْذِمَةٌ﴾ هي القطعة القليلة الحقيرة من الشيء، ووصفها بـ ﴿قَلِيلُونَ﴾ رغماً عن كون الموصوف مفرد اللفظ للمبالغة في التهوين من شأن بني إسرائيل أمام جنده لرفع معنويات جيشه.

*﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾: تناقض نُطق الطاغية؛ يصفهم بالشرذمة القليلة ثم يعترف ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾! استخدام اللام المزحلقة في الخبر ﴿لَغَائِظُونَ﴾ يظهر حجم الحنق والغيظ الدفين في صدر فرعون وملئه من عصيان هؤلاء اتخذهم "عبيداً" له.

*﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾: قُرئت (حَذِرُونَ) و(حَاذِرُونَ). ﴿حَاذِرُونَ﴾ أي مستعدون ومتنبهون مستلئمون بالسلاح. الجملة الاسمية تؤكد استنفار دولة كاملة أمام فئة مستضعفة، وهو ما يُظهر الخوف الباطني المتستر بالتجبر الظاهري.

*﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: الانتقال التفاتي عجيب من كبر فرعون إلى القضاء الإلهي النافذ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ بإضافة الفعل إلى نون العظمة الإلهية.

إشراقة بلاغية: التقابل بين النعيم المستقر ﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ والخروج الذليل الحاسم إلى الموت والهلاك.

*﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: ﴿مَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هو المجالس الحسان والقصور والخدم. إبراز هذه النعم يجلّي حسرة النزع؛ إذ خلعهم الله منها في لحظة واحدة.

*﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، التدبر والاستبصار: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف للتشبيه والتقريب للذهن لسرعة استبدال القوى. (وَأَوْرَثْنَاهَا) هنا ما يطلق عليه البلاغيون استعارة للتمكين الشامل واستخلاف المستضعفين بعد إهلاك المترفين، كما يرى البقاعي في (نظم الدرر).

هنا يبرز سؤال: ما الذي أورثه الله بني إسرائيل؟ هل خلافة الأرض؟ أم خلافة مصر؟ أم ماذا؟ اتجهت أنظار المفسرين إلى الجمع بين الوراثة الاستخلافية (تمكين الأمة في الأرض) والوراثة المادية (كنوز الطاغية) .

ذهب البغوي الواحدي، إلى أن الله أورثهم مصر ذاتها، أي أن الله أهلك فرعون وجنده وأعاد بني إسرائيل إلى مصر، فملّكهم ديارهم وأموالهم وجناتهم ومقامهم الكريم ٥وهذا يتوافق مع ما نقله المفسرون عن الحسن البصري وغيره [1].

بينما ذهب جمهور المفسرين ومنهم ابن عاشور في تفسير سورة الأعراف والرازي، إلى أن الوراثة تنصرف إلى الأرض المقدسة (الشام)، لقوله تعالى: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) [الأعراف:137].

فهل أورثهم الله الخلافة في عهد يوشع وداود وسليمان؟ والجواب: نعم؛ ذهب أئمة التفسير والتاريخ إلى أن الوراثة القرآنية لاستخلاف بني إسرائيل وتمكينهم في

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معلم السنن) (ص864] ، وموقع إسلام ويب.

الأرض قد تحققت بالفعل على مراحل: جيل التمكين الأول (يوشع بن نون): بعد انقضاء سنوات التيه الأربعين، دخلوا الأرض المقدسة وورثوا الديار وحكموها. ثمّ جيل التمكين الأعظم (داود وسليمان): وهو ذروة الخلافة والملك، حيث أورثهم الله الأرض وبسط لهم النفوذ، وهو تحقيق صريح لقوله تعالى: (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) [الأعراف: 137].

أمّا سيد قطب – رحمه الله (في ظلال القرآن) فيرى أنّ السياق يعجل ببيان العاقبة للتشفي وإبراز قدرة الله ۔فالوراثة هنا جاءت لتعكس المفارقة العجيبة: بالأمس كانوا مستضعفين، واليوم هم الوارثون لكل ما كان يتكبر فيه فرعون وملؤه .

وفي دلالات التراكيب: يوضح ابن عاشور – رحمه الله – في (التحرير والتنوير) أنّ الوراثة تعني تمليكهم الأرض التي كانت للظالمين، مع الإشارة البليغة إلى أن هذا التمكين كان ثمرة لصبرهم على أذى فرعون، لقوله: (بِمَا صَبَرُوا)

ويرى البقاعي – رحمه الله - في (نظم الدرر) أنّ الانتقال من هلاك فرعون إلى إيراث بني إسرائيل يمثل نسقاً متصلاً؛ فالله يطهر الأرض من الظالمين ليورثها عباده المستضعفين جزاءً وقدراً ۔

هل غادر بنو إسرائيل مصر كلياً كما يذكر سيد قطب؟ عند قراءة طرح سيد قطب في هذا الموضوع، نجده يؤكد على "الخروج الكلي والنهائي" للأمة من مصر ۔ وبالتالي فإنّ الوراثة المذكورة في سورة الشعراء (كذلك وأورثناها) تعني انتقال مقدرات الجنات والكنوز إلى بني إسرائيل خارج مصر (أي أورثهم إياها كغنائم رحلت معهم، أو أورثهم أرضاً كبديل)، وهو يميل إلى تفسير الوراثة بمعنى الاستيلاء على أموالهم ونقلها أو إيراثهم الأرض المقدسة لاحقاً ۔

خلاصة الرأي: إنّ الإيراث في الآية يحمل دلالة مزدوجة: مادية (أموال فرعون وكنوزه) واستخلافية (خلافة الأرض) ۔وقد تحقق هذا الاستخلاف بالفعل على يد أنبياء الله في الشام (يوشع بن نون، داود، وسليمان عليهم السلام)، وإن كان ذلك قد تأخر بسبب حقبة التيه ۔والله أعلم

*﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، البيان واللغة: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ وقت إشراق الشمس. التعبير بالسرعة والفاء يصور اندفاع جيش فرعون واثقين باللحاق بركب موسى المستضعف.

*﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، الإشراقة البلاغية والدراما النفسية: ﴿تَرَاءَى﴾ تفاعل يدل على أن كل جمع رأى الآخر بوضوح. قمة

الأزمة المادية: البحر أمامهم والعدو خلفهم. صرخة بني إسرائيل ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ تؤكدها المؤكدات (إنّ) و(اللام) تعبيراً عن اليأس البشري القاطع.

*﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾: مقام اليقين الإيماني وجواب النبي الرسول العبد الواثق بمعية ربه جل وتعالى: ﴿قال كَلَّا﴾ حرف زجر وردع لليأس. انظر إلى ثبات العقيدة: يقين فرد واحد (موسى) يرجح بضعف جمع كامل. ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ المعية الخاصة والناصرة، وتقديم (معي) واستهلال الحديث بذكر الله يورث العبد السكينة والمخرج، ويذكرنا بدعوة امرأة فرعون: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [التحريم:11] حيث قدمت الجار قبل الدار.

*﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

إشراقة بلاغية بيانية: الفاء السريعة تدل على إجابة الفرج فور صدور اليقين. كما أنّ ﴿الطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ تشبيه بليغ للجبل الشاهق؛ الماء السيال يتحول إلى جدار صلب قائم، في معجزة خرقت نواميس الطبيعة.

*﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾، ﴿أَزْلَفْنَا﴾ من الزُّلفة وهي القرب، أي قرّبنا هناك (ثَمَّ) فرعون وجنوده إلى موضع الهلاك، حيث أغراهم انشقاق البحر بالدخول وراء بني إسرائيل.

*﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾، السياق والتأكيد: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد شمول السلامة حتى لا يُظن أن أحداً من ضعاف بني إسرائيل هلك أو تخلف.

*﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، الإيجاز والتناص: بكلمتين ﴿أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ انتهت دولة العتو والطغيان، والتعبير بـ ﴿الْآخَرِينَ﴾ فيه إهمال وتحقير لشأنهم ومحو لأسمائهم.

*﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، الفاصلة والترجيع: الفاصلة القرطبية الشائعة في السورة. علامة متجددة تعظ العقول عبر العصور، ورغم مشاهدة الخوارق يبقى الجحود غالباً على نفوس الكافرين.

*﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، المزاوجة الأسماء الإلهية: اقتران ﴿الْعَزِيزُ﴾ (انتقاماً من فرعون) بـ ﴿الرَّحِيمُ﴾ (نجاة لموسى والمؤمنين). وفيها تسلية للرسول ﷺ.

المقطع الثاني: نبأ إبراهيم وحجاجه ودعاؤه: *﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، الأسلوب: انتقال من الآيات المادية والحركية (موسى) إلى الحجة العقلية والروحية (إبراهيم). التعبير بـ ﴿نَبَأَ﴾ يدل على الخبر العظيم ذي الشأن.

*﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، السياق والحوار: سؤال ليس للاستفهام فحسب، بل هو سؤال استنكار وتجاهل وشروع في الحجاج، ليجبرهم على إعمال عقولهم والتلفظ بحقيقة ما يعبدون.

*﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، إشراقة بلاغية: (قَالُوا) واعترفوا ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾، والجملة الاسمية مع الفعل المضارع ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ تعكس مدى إصرارهم وملازمتهم المستمرة للباطل بسعادة وافتخار!

*﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، المنطق الفطري: حجة عقيلة مقطوعة. الشروط الأساسية للإله: السمع، النفع، الضر. تكرار الاستفهام ينقض ألوهية هذه حجارة ميتة لا تملك مقومات الإدراك أو التأثير، كما أشار ابن تيمية – رحمه الله -.

*﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، التحليل النفسي البلاغي: التراجع المباشر والهروب من العقل إلى ﴿بَلْ﴾ الإضرابية! اعترفوا بالإفلاس العجزي العقلاني ولجؤوا للتقليد الأعمى الموروث.

*﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

التبرؤ والفاصل العقدي: جعل يفاصلهم بوضوح: وأظهر التحدي المطلق للباطل.

*﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ فيه إعلان الولاء والبراء بلغة قطعية ومفردة تنبئ عن صلابة موقف إبراهيم وحده أمام القوم، وكان الاستثناء ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع ومباشر لإخراج الحق وتبيينه.

*﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، الذوق البلاغي والإيماني: يعرّف رب العالمين بأفعاله ونعمه المباشرة. قدم الخلق ﴿خَلَقَنِي﴾ لأنه أصل الوجود، ثم عطف عليه بالهدية ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لأن الهدية أصل الكمال الروحي.

*﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾: إدخال الضمير ﴿هُوَ﴾ يفيد الحصر والاختصاص، أي هو وحده المتكفل بالرزق لا غيره من الأصنام أو البشر.

*﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، أدب الخطاب الإلهي: لم يقل "وإذا أمرضني" بل نسب المرض لنفسه ﴿مَرِضْتُ﴾ تأدباً مع الله عز وجل، ونسب الشفاء لله وحده ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ لأنه فعل لطف ورحمة.

*﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾، التتابع الزمني: الانتهاء للآجل؛ قدرة الله جل وتعالى المطلقة في التحكم بالحياة والموت والنشر.

*﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾، انكسار الخليل والعبودية: إبراهيم الخليل عليه السلام، الشامخ في وجه النمرود وقومه، يقف أمام الله خائفاً طامعاً ﴿أَطْمَعُ﴾! التعبير بـ "أطمع" يجسد ذروة معرفة الله والرجاء ونفي الإدلال بالعمل.

*﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، الدعاء والتوسل: انتقل من التوحيد والحجاج إلى المناجاة، ومعنى: ﴿حُكْمًا﴾ العلم، والحكمة، والنبوة، وفصل القضاء. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ طلباً للمعية الفاضلة في الآخرة.

*﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، الإشراقة البلاغية والاستجابة: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ استعارة للذكر الحسن والثناء الصادق والدعوة المستمرة بعد وفاته في الأمم الآتية (وقد استجاب الله له فكل الملل تظله وتحترمه وتصلي عليه في كل صلاة).

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾، البيان: التعبير بالوراثة ﴿وَرَثَةِ﴾ أي: في من تعطيه جنة النعيم، فالوراثة تؤول للوارث دون عناء كحق مقسوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لَن يُنَجِّيَ أحَدًا منكم عَمَلُه، قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتَغَمَّدَني اللهُ برَحمةٍ، سَدِّدوا وقارِبوا، واغدوا وروحوا، وشَيءٌ مِنَ الدُّلجةِ، والقَصدَ القَصدَ تَبلُغوا [1] .

*﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، الوفاء الفطري: دعاؤه لأبيه كان بموجب الوعد المذكور في القرآن قبل أن وتبين له أنه عدو لله فيتبرأ منه. التعبير بـ ﴿الضَّالِّينَ﴾ فيه إشفاق وتشخيص دقيق لحال الأب، (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) [التوبة:114].

*﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

الدرة الجوهرية والبيان النفسي: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يوم يبعثون﴾ الخزي هو الفضيحة والعذاب على رؤوس الخلائق، وهذا يؤكد ما جاء في الحديث السابق، وأن الأنبياء يخافون ذنوبهم وأخطاءهم يوم القيامة.

وفي حديث أبي هريرة الطويل، حين يقول نبي الله نوح للناس: اذهَبُوا إلى غيري، اذهَبُوا إلى إبراهيمَ، فيَأتونَ إبراهيمَ فيَقولونَ: يا إبراهيمُ، أنتَ نَبيُّ اللهِ وخَليلُه مِن أهلِ الأرضِ، اشفَعْ لَنا إلى رَبِّك، ألا تَرى إلى ما نَحنُ فيه، فيَقولُ لهم: إنَّ رَبِّي قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لم يَغضَبْ قَبلَه مِثلَه، ولَن يَغضَبَ بَعدَه مِثلَه، وإنِّي قد كُنتُ كَذَبتُ

1 - أخرجه البخاري (5673)، ومسلم(2816)

ثَلاثَ كَذَباتٍ -فذَكَرَهنَّ أبو حَيَّانَ في الحَديثِ- نَفسي نَفسي نَفسي، اذهَبُوا إلى غيري، اذهَبُوا إلى موسى، فيَأتونَ موسى [1].

نفي نفع أعتى مقومات الدنيا: ﴿مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾؛ المال عماد الحياة والبنون عماد القوة.

*﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: الاستثناء أصل العفو والنجاة. القلب السليم هو الخالي من الشرك، الشك، الغل، وشبهات الشهوات؛ القلب الذي سلم لله وسلمت الجوارح بانقياده، وهي مؤهلات الدخول في رحمة الله، نسأل الله المغفرة وأن يدخلنا في رحمته ويعف عنا.

*﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، إشراقة بلاغة التقابل (المقابلة التامة): *﴿أُزْلِفَتِ﴾ (قُرّبت وازدانت) تتوافق مع ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسْريَ بي فقالَ: يا محمَّدُ، أقرئ أمَّتَكَ منِّي السَّلامَ وأخبِرْهُم أنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التُّربةِ عذبةُ الماءِ، وأنَّها قيعانٌ ، وأنَّ غِراسَها سُبحانَ اللَّهِ والحمدُ للَّهِ ولا إلَهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أكْبرُ[2].

*﴿بُرِّزَتِ﴾ (أُظهرت وعُريت بأهوالها) تتوافق مع ﴿لِلْغَاوِينَ﴾، الفعل الماضي المبني لما لم يسم فاعله في الاثنين يدل على وقوع ذلك حتماً وكأنه حاضرٌ الآن للعين.

وهما مخلوقتان فرغ من خلقهما، والجنة قيعان للزارعين العاملين الباذلين، وأذن لجهنم بنفسين: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: اشتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّها، فقالت: يا رَبِّ، أكَلَ بَعضي بَعضًا، فأذِنَ لَها بنَفَسَينِ: نَفَسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصَّيفِ، فهو أشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الحَرِّ، وأشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الزَّمهَريرِ [3].

*﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾

التبكيت والتقريع: توبيخ واستكبار عكسي. الاستفهام ﴿أَيْنَ... هَلْ﴾ استفهام تقريعي يقطع أملهم ويضاعف حسرتهم أمام الموقف العصيب.

---

1 - أخرجه البخاري (4712)، ومسلم(194)
2 - أخرجه الترمذي (3462) واللفظ له، والطبراني (214/10) (10363)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (292/2) باختلاف يسير.
3 - أخرجه البخاري (3260)، ومسلم.(617)

*﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾، بلاغة التجسيم اللساني: ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ لفظ فيه تكرار الحروف (كبّ - كبّ)، وتجسد صورة القذف والدهورة المتكررة متقلبين على وجوههم في أرجاء جهنم! تجمع الأصنام، والغاوين، وجنود إبليس جميعاً في رمية واحدة.

*﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾

مشهد الخصام والندم، يوم لا ينفع الندم: ﴿تَاللَّهِ﴾ التاء للقسم المؤكد مع الحرقة.

اعتراف متأخر بالجريمة: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ العلة كانت المساواة بين الخالق والمخلوق.

*﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ إعفاء أنفسهم وإلقاء اللوم على كبراء الإجرام والشياطين.

*﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، الاستغراق والبلاغة: نفي جنس الشفعاء الجمع ﴿شَافِعِينَ﴾.

نفي ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (بالمفرد والصفة)؛ والحميم هو الصديق المحب المخلص الشفيق الذي يهتم لأمرك. نفي الشفيع والصديق معاً يعكس كمال العزلة والانقطاع والضياع المطلق.

*﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، التمني المستحيل: ﴿كَرَّةً﴾ أي رجعة وعودة إلى الدنيا. أمنية العاجز بعد فوات الأوان، ينصب الفائت بالجواب للتمني لشدة اللهفة.

*﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

الختام والتناسق: إغلاق المقطع بالفاصلة القرآنية الحاكمة لتأكيد القاعدة الإلهية المستمرة: الالتعاظ بالقصص، والإيقان بعزة الله العادل ورحمته بعباده المؤمنين.

*(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(111) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (115) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ(136) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(140))

تتجلّى في هذا النص القرآني الكريم (من سورة الشعراء) هندسة بيانية بليغة، ونظمٌ أسلوبيٌ فريد يربط الشكليّة الإيقاعية بعمق الدلالة التفسيرية والسياقية. سورة الشعراء تُعرف بـ "سورة المواساة والتسلية" للنبي ﷺ، وحشدت قصص الأنبياء بنسق تكراري منتظم يُرسّخ وحدة الرسالات الإلهية، وطبيعة المواجهة الأزلية بين الحق والباطل.

الجزء الأول: قصة نبي الله نوح -عليه السلام- *﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾،

إشراقة بلاغية: قِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) وَ (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) وَ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) وَإِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ وَاحِدٌ؟ قَالَ: إِنِ الْآخَرَ جَاءَ بِمَا جَاءَ الْأَوَّلُ، فَإِذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا فَقَدْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَجْمَعِينَ [1].

السياق: توطئة لإظهار فداحة الجرم الإنساني تجاه سفراء السماء، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

الأسلوب: إطلاق لفظ «أَخُوهُمْ» فيه استعارة لطيفة وشحنة عاطفية؛ فهو أخوهم في النسب والوطن، يعرفون صدقه وأمانته، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها: أنّ النجاشي رضي الله عنه كلَّمَهُ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ قالَ لَهُ: أيُّها الملِكُ كنَّا قومًا أَهْلَ جاهليَّةٍ نعبدُ الأصنامَ، وَنَأْكلُ الميتةَ، وَنَأْتي الفواحِشَ، ونقطَعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منَّا الضَّعيفَ، فَكُنَّا على ذلِكَ حتَّى بَعثَ اللَّهُ إلينا رسولًا منَّا نعرفُ نسبَهُ، وصِدقَهُ، وأمانتَهُ، وعفافَهُ، فدعانا إلى اللَّهِ لتوحيدِهِ [2].

---

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص867).

2 - أخرجه أحمد (1740)، وابن خزيمة (2260)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/ 115) جميعا مطولا، قال ابن حجر في فتح البخاري: [فيه] سلمة بن الفضل فيه مقال، قلت: أما الهجرة

قوله تعالى: «أَخُوهُمْ» تضع المشهد في إطاره الإنساني الناصح الحريص، فلم يأتِهم غريباً ولا مستكبراً. و«أَلَا تَتَّقُونَ» استفهام إنكاري يحثهم على الإنابة والاستيقاظ.

*﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، إشراقة بلاغية: تأكيد بـ «إِنِّي» وتقديم الجار والمجرور «لَكُمْ» للاهتمام والملاءمة؛ والأمانة هنا هي المؤهل الأول لحمل الرسالة، أي: أؤدي إليكم وحي الله بلا زيادة ولا نقصان.

*﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، النظم والبلاغة: ترتيب الفاء العاطفة يُفيد الترتيب والتعقيب المباشر. فما دام أنه رسول أمين، فالنتيجة المنطقية المترتبة فوراً هي التقوى والطاعة.

*﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: صياغة النفي والحصر («مَا... إِنْ... إِلَّا») لتنزيه الدعوة عن أي غرض دنيوي.

يركز ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - على إخلاص الدعاة وسلامتهم من الطمع المالي هو المرتكز المادي لاستعلاء العقيدة. متى طَمِعَ الداعية في أجر المخلوقين سقطت هيبة الدعوة من قلوبهم.

*﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، الأسلوب والتكرار: تكرار الآية للتوكيد اللفظي والمعنوي؛ فالأولى ترتّبت على كونه «رَسُولٌ أَمِينٌ»، والثانية ترتّبت على كونه «لا يبتغي أجراً»، وهما جناحا صدق النبوة.

قال سبحانه في سورة يس: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [يس:20-22].

*﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، السياق والنفسية: الاستكبار الطبقي. «الْأَرْذَلُونَ» اسم تفضيل يقصدون به الضعفاء وسفلة الناس بزعمهم (الحرفة أو الفقر).

كشفت هذه الآية عاهة المشركين؛ تقييم الناس بظواهر الدنيا وأموالها لا بقلوبها وإيمانها.

*﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: لست متعبّداً بالتفتيش عن بواطنهم وأعمالهم وماضيهم وحرفهم، إنما لي ظاهر إيمانهم.

إلى الحبشة مرتين، وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي صلاة الغائب، فثابت، فيكون الخلاف في حفظ حوار النجاشي وجعفر رضي الله عنهما.

*﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، إشراقة بلاغية: قصر الحساب على الله تعالى. وفي «لَوْ تَشْعُرُونَ» جُملة إعتراضية تُلوّح بنفي الشعور والمشاعر العقلية السليمة عنهم.

*﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: دخول الباء في خبر النفي «بِطَارِدِ» للتأكيد القاطع والقوة، أي: ليس من شأني ولا في قدرتي ولا أخلاقي أن أطرد من أوى إلى ظلال الإيمان.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، إشراقة بلاغية: أسلوب قصر حقيقي؛ تحديد الوظيفة بدقة (إنذار بيّن واضح)، فلا أملك توزيع المقامات والطبقات الاجتماعية.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾: حين أفلست حججهم انتقلوا إلى لغة التهديد والبطش. «لَتَكُونَنَّ» اللام وطباق التوكيد بالنّون. و«مِنَ الْمَرْجُومِينَ» أبلغ من "لَنَرْجُمَنَّك"؛ لأنها تُفيض بأنه سينضم إلى زمرة من سُبِقَ رجمهم وقتلهم بالحيارة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾: هنا يلجأ نبي الله نوح عليه السلام إلى ركنه الشديد بعد أن استنفد وسائل البشرية. النداء بـ «رَبِّ» بدون ياء المتكلم للدلالة على القرب والاستغاثة السريعة.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: «فافْتَحْ» أصل الفتح الحكم والفصل بين الخصوم، ومما يقطع الدابر. وتنكير «فَتْحًا» للتعظيم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: الفاء تدل على سرعة الاستجابة الإلهية. وصف الفلك بـ «الْمَشْحُونِ» (المملوء تماماً بكل المكونات والكائنات) يدل على إحكام الإنجاء وكمال إعداد الأسباب.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾: «ثُمَّ» للتراخي والمهلة في التدرج، ولفظ «الْبَاقِينَ» إيجاز بياني بديل عن ذكر أسمائهم أو تفاصيلهم؛ لأنهم صاروا غثاءً لا قيمة له.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: التعقيب التقريري المستمر في السورة. علامة وعبرة لمشركي قريش، وتثبيت للنبي ﷺ بأن الأكثرية ليست معياراً للحق.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، إشراقة بلاغة الاقتران: «الْعَزِيزُ» بعقابه وجبروته للمكذبين، «الرَّحِيمُ» بنجائه ورعايته للمؤمنين.

الجزء الثاني: قصة قوم عاد ونبيهم هود -عليه السلام- *﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الأسلوب والنظم: تكرار الديباجة ذاتها للربط بين أصول الرسالات السماوية. التكرار هنا ليس مجرد ترجيع لفظي، بل هو إقرار بسنة إلهية ثابتة وشبكة مفاهيمية موحدة بين كل الأنبياء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأنبياءُ إخوَةٌ لعَلَّاتٍ: دِينُهم واحِدٌ، وأُمَّهاتُهم شَتَّى، وأنا أوْلى النَّاسِ بعيسى ابنِ مَريمَ [1].

*﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: «رِيعٍ»: المكان مرتفع. «آيَةً»: بناءً شامخاً أمارةً وعلامة.

إشراقة بلاغية: الاستفهام للإنكار والتوبيخ. أنكر عليهم البناء المقترن بـ «تَعْبَثُونَ» (أي لا لغرض السكن والمصلحة بل لمجرد التفاخر والخيلاء والعبث بالموارد).

*﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: «مَصَانِعَ»: قال ابن عباس: أبنية، وقال مجاهد: قصوراً مشيدة، وعن الكلبي: إنها الحصون، وقال قتادة: مآخذ الماء، فهي البروج المشيدة والحياض والمصانع المائية.

(لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) تشخيص لمرض العمران المادي العاري من الإيمان؛ وهو الانغماس في التشييد تهرّباً من فكرة الموت، وغفلةً عن الآخرة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، إشراقة بلاغية: تكرار الفعل «بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ» لتأكيد الشدة والقسوة الخالية من الرحمة؛ حيث يجمعون بين الترف المادي والغشم والبطش الجسدي.

*﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، التناغُم: إعادة الدعوة للتقوى بعد تشخيص أمراضهم الحضارية (العبث العمراني، الوهم بالخلود، البطش بالضعفاء).

*﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾، ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، البيان والتفصيل:

إجمال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ للتذكير بالعموم الشامل للتنعم. ثم تفصيل: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ...﴾ لتعديد النعم التراكبية: المقومات الاقتصادية (الأنعام)، المقومات البشرية والقوة (البنين)، والمقومات البيئية والترفيهية (جنات وعيون).

تذكير بالإحسان لعلّ القلوب تلين؛ فالكريم إذا ذُكّر بالنعمة استحيا. *﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، إظهار شفقة الرسول وتخويفهم بعظمة اليوم لتناسب عظمتهم واستكبارهم.

---

1 - أخرجه أبو داود (4324) باختلاف يسير، وأخرجه البخاري (3443) مختصراً، وصحح شعيب الأرناؤوط إسناده.

*﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾، إشراقة بلاغية: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا» تعبير عن أقصى درجات التبلّد واللامبالاة وانسداد منافذ التأثر. والتعبير بـ ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أبلغ من "أم لم تعظ"؛ لأنهم نفوا عنه أصل اتصافه بالوعظ أو جدواه عندهم.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾: قُرئت (خُلُقُ) أي عادة الأوليين وطبيعتهم من الترف والبناء، وقُرئت (خَلْقُ) أي اختلاق وكذب الأوليين وأساطيرهم.

*﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾: نفي جازم مؤكد بالباء للإنكار الكامل لليوم الآخر والعقاب الإلهي.

*﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: الإيجاز والسرعة: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ» الفاءان تعقيبتان؛ بين التكذيب والهلاك سرعة حتمية واستحقاق إلهي، دون تفصيل طويل هنا؛ لأن التركيز على مصير الاستكبار المادي.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الختام: الفاصلة القرآنية المنتظمة في السورة، تكرار باللام المزحلقة وضمير الفصل «هُوَ» لتقرير السنّة: عزّ فاستأصل الظالمين، ورَحِمَ فأنجى هوداً والمؤمنين معه.

*(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(159) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160)إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) كَذَّبَ أَصْحَابُ

الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(191))

استمراراً لهذا الخيط الإلهي المنسوج بحكمة ونَظْم معجز في سورة الشعراء، تتواصل المشاهد التفصيلية لمواجهات الأنبياء مع أقوامهم. هنا في هذا الدرس تستقر العدسة البيانية على ثلاث رسالات: نبي الله صالح (قوم ثمود)، ونبي الله لوط (قوم لوط)، ونبي الله شعيب (أصحاب الأيكة).

الجزء الثالث: قصة نبي الله صالح -عليه السلام- *﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، - ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الانسجام والتكرار السياقي: استمرار للنغم الديباجي الأساسي في السورة؛ لإقرار الحقيقة الصارمة: دعوة الأنبياء واحدة، والرسالة لا تبغى كسباً دنيوياً. وتوصيف «أَخُوهُمْ» يتكرر لبيان الرابطة الإنسانية والرحمة التي يبدأ بها الرسول دعوته.

*﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ أي: في الدنيا، (آمِنِينَ﴾، أي: من العذاب، إشراقة بلاغية: استفهام إنكار وتوبيخ. كلمة «مَا هَاهُنَا» فيها تذكير نعم الله في الدنيا إجمالاً ثم يفصلها:

يوضح سيد قطب – رحمه الله -: أنّ في هذا التعبير هزٌّ وجداني عنيف للضمير المتبلد، يذكّرهم بأن هذا النعيم والحرية والرفاهية ليست سرمدية، بل هي مظنة ابتلاء واختبار.

*﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: إبدال وتفصيل لما أُبهم وأجمل في ﴿مَا هَاهُنَا﴾.

قوله سبحانه: (هَضِيمٌ) اسم فاعل، أو اسم مفعول يدل على النعومة واللطافة؛ فهو طلعٌ هضيمٌ أي لطيف، متراكم، هنيء السائغ هضمه. وخصّ النخل للرفع من قدر غذائهم الرئيسي.

*﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾: «فَارِهِينَ» فيها قراءتان أشار لهما البغوي وابن عاشور رحمهما الله، (فارهين)، أي: أصحاب بطَر وأَشَر وكبر، والقراءة الأخرى (فَرِهِين) أي: حاذقين، ماهرين في نحت الجبال.

يرى محمد قطب – رحمه الله – أنهم جمعوا بين المهارة التقنية (النحت في الصخر) وبين التردّي الأخلاقي (العتوّ والبطر)، وهو مجسم للحضارات المادية الجاحدة عبر التاريخ.

*﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: إعادة الربط بالتقوى والطاعة بعد تفكيك كبرهم العمراني والتقني.

*﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، إشراقة بلاغية تحليلية: خصّ «الْمُسْرِفِينَ» بالتنفير. وجاءت الصفة ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ لتأكيد أن إفسادهم خالٍ من أي شائبة صلاح؛ فالإسراف يتجاوز الحد ويقود للفساد المطلق.

ويوضح ابن تيمية – رحمه الله - أنّ من أطاع أهل الإسراف والفساد وسار خلف رؤوس طغيانهم، فقد نَبَذَ الشرائع وناوأ الدين.

*﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: «الْمُسَحَّرِينَ» صيغة مبالغة على وزن مفعّل؛ أي ممن سُحروا مراراً حتى غَلَبَ السحر على عقله، وقيل: من أصحاب "الرئة والحرْم" (ممن يأكلون السَّحُور والأغذية كبقية البشر فلا ميزة لك).

*﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، الأسلوب: أسلوب حصر لنفي النبوة بحجة "البشرية" (الشبهة الشائعة لدى المكذبين)، ثم اقتراح الآية والمعجزة على سبيل التعنت والتحدي.

*﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، البيان والتنظيم: إجابة التحدي بالمعجزة؛ «نَاقَةٌ» خروجٌ خارق من صخرة، واستتبعه بنظام دقيق لقسمة الماء «شِرْبٌ» (نوبة وشرب يوماً بيوم) اختباراً لامتثالهم.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، حذرهم ونهاهم: النهي عن «المَسّ بِسُوءٍ» وهو أدنى مراتب الإيذاء للتغليظ في حمايتها، وجواب النهي «فَيَأْخُذَكُمْ» منصوب بفاء السببية دلالةً على الفورية والمباشرة في حلول العذاب عند الانتهاك.

*﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾: نسب العقر للجمع ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مع أن المباشر كان واحداً، قيل: اسمه (قدار بن سالف)؛ لكن البقية راضون ومظاهرون له.

قوله سبحانه: (فأصبحوا نَادِمِينَ) الندم هنا ندم حسرة وخوف من وقوع العذاب المعاين، لا ندم توبة وإنابة لله، كما فعل قوم يونس عليه السلام، كما أنّ هذا الندم وقع بعد عقر الناقة، ولات ساعة مندم.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، الأسلوب: موجز حاسم يقرر النتيجة المباشرة للفعل بلا إمهال.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، الختام: التعقيب المحفوظ المتردد الجليل في السورة.

الجزء الرابع: قصة نبي الله لوط -عليه السلام- *﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، - ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، - ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الربط السياقي: النظم المتكرر لربط القضايا الأخلاقية والاجتماعية بالفطرة والتوحيد.

*﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، الاستفهام والبيان: استفهام إنكاري شديد التقبيح والتشنيع؛ عَبّر بـ «الذُّكْرَانَ» لإبراز مخالفة الفطرة والتصادم مع الطبيعة التي خلقها الله.

*﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، أي: معتدون، مجاوزون الحلال إلى الحرام، قال في سورة الأعراف: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) [الأعراف:81]، فوصفهم بالإسراف لأنهم تجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرمه وعصوا، بل تمادوا في المعصية.

بيّن ابن القيم – رحمه الله – أنّ المعنى: أنهم تركوا المباح الطيب (الأزواج) الموائم للطباع السليمة، وركضوا خلف الحرام الفاسد. وتوصيفهم بـ «عَادُونَ» اسم فاعل من العدوان، أي متجاوزون للحدود الفطرية والإنسانية إلى حدّ الانحراف السافل.

*﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾، الأسلوب: مقابلة الناصح بالتهديد بالنفي والإبعاد. «الْمُخْرَجِينَ» بصيغة المفعول توحي بأن لديهم سوابق وقوانين جائرة في طرد الصالحين والنظفاء من مجتمعهم المنسلخ.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾: «الْقَالِينَ» اسم فاعل من «قَلَى» أي المبغضين أشد البغض والداحرين له.

دقة التعبير: قال (لِعَمَلِكُم) ولم يقل "لكم"؛ ليوضح أن بغضه مقصور وموجه لذات الجريمة الشنيعة، داعياً إياهم للطهارة.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، إنها الاستغاثة: نداء رباني مباشر باللجوء والحماية النفسية والبدنية من الآثار المدمرة لعملهم الفاسد وشؤمه.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾، البيان والتأكيد: أطلق الشمول ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ثم استثنى ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ (امرأته)؛ ووصفها بـ «الْغَابِرِينَ» أي الباقين في العذاب والهالكين؛ لأن هويتها العقائدية كانت مع القوم الفاسقين رغم صحبتها المكانية للنبيّ.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾، الأسلوب: «ثُمَّ» للتراخي الترتيبي، والتدمير جاء حازماً وشاملاً لكل القوم العادين.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، إشراقة بلاغية: التعبير بالمطر وهو في الأصل للرحمة والخير، لكن أُسند هنا إلى الحجارة والعذاب في مشهد مشاكل ومقلوب (كما قلبوا الفطرة أُمطروا مطراً غير معتاد). والتعقيب ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ فيه ذم وتقبيح شديد لمصيرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

الختام: استقرار العبرة بالقدرة الإلهية المطلقة والرحمة بالمصلحين.

الجزء الخامس: قصة أصحاب الأيكة ونبيهم شعيب -عليه السلام- *﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾: «الْأَيْكَةِ»: الشجر الملتف.

ملاحظة بيانية لطيفة أشار إليها ابن عاشور والبغوي: لم يقل هنا "أخوهم شعيب" كما مع نوح وهود وصالح ولوط، بل قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ بنفي لفظ «أَخُوهُمْ»؛ قيل: لأن نسبه لم يكن منهم، وألاهم أنه تعالى هنا نسبهم إلى الشجرة التي يعبدونها، وهو ليس أخاً لهم في عبادتها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الاطراد النظمي: الحفاظ على الركيزة الأساسية للدعوة ونقاء مقصد الداعية.

*﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

التشريع والاقتصاد: أمر إيجابي: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾، ونهي نهائي: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾.

(الْقِسْطَاسِ): الميزان العدل المعتدل (وهي كلمة معرّبة ذات أصل رومي أو يوناني دخلت الفصحى واستعملها القرآن، كالزابي.

*﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، الشمول والتوسع:

(تَبْخَسُوا): تنقصوا وتحتقروا. (أَشْيَاءَهُمْ): عموم يشمل الأموال، الحقوق، والسلع.

(وَلَا تَعْثَوْا): العَثَى هو أشد الفساد الذي يقع بسرعة وتخريب للنظام الاجتماعي والاقتصادي.

*﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾، (الْجِبِلَّةَ): الخلق والخلقة الطبيعية والتصوير الذي جُبلت عليه الأمم السابقة. التذكير بالخالق الذي أوجد الخليقة المتقدمة.

*﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾، ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

الأسلوب: رمي الصالحين الجاهز بالتهم المعلّبة (المسحورين) والتشكيك التام مع التوكيد بـ «إنْ» المخففة و«اللاّم» في ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لإبراز سوقيتهم واستكبارهم.

*﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: «كِسَفًا»: قِطَعاً وجوانب حجرية أو نارية ساقطة. طلبوا العذاب تهكماً واستهزاءً بالرسول، وقد جرى على ألسنة العلماء أن البلاء موكل بالمنطق، وبعضهم يرويه عن الصحابي ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا عليه، وروي مرفوعا ولا يصح رفعه.

*﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، الأدب والرد: رد حكيم متأدب؛ لم يستعجل العذاب ولم يدعُ على هواه، بل ردّ الأمر إلى العلم الإلهي المحيط واستحقاقهم.

*﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أرسل الله عليهم حراً شديداً وسَمُوماً أخذ بأسحارهم وأنفاسهم سبعة أيام، وكانوا يدخلون الأسراب فإذا دخلوها وجدوها أشد حرا، فخلجوا فرفعت لهم سحابة («الظُّلَّةِ») استروحوا إليها وظنوا فيها برداً وذكاءً، فلما اجتمعوا تحتها أُمطرت عليهم ناراً وأحرقهم. تناسب العذاب مع تعنّتهم في طلب سُقُوطِ القطع من السماء [1].

*﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

الخاتمة: تطابق الفواصل والتذييل القرآني لترسيخ اليقين في قلب النبي محمد ﷺ وأمته، وتثبيت الرؤية الشاملة بأن العزة الإلهية تقصم الظالمين، وأن الرحمة تحيط بالمؤمنين المصلحين.

*(وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ

1 - انظر البغوي: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص871).

آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (203) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ(206) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (208) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(227))

تصل سورة الشعراء في هذا المقطع والدرس الختامي إلى نهاية السورة إلى «ذروتها البيانية ومقصدها الأسمى»، بعد أن طوفت بنا سياقاتها في مصارع المكذبين عبر جولات الأنبياء الخمسة (نوح، هود، صالح، لوط، وشعيب)، تعود الآن إلى المركز والمحور الذي بُدئت به السورة: حقيقة القرآن الكريم، وعظمة الموحى إليه ﷺ، وتفنيد الشبهات حول الوحي، ورسم منهج الدعوة والعاقبة.

الجزء السادس: جلال المصدر وأصالة التنزيل *﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الواو عاطفةٌ تُرَجِّعُ الصدى إلى مطلع السورة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، المؤكدات المتتابعة («إنَّ»، «اللاّم المزحلقة») لردّ كبرياء المشركين.

(تَنزِيلُ) مصدر أُريد به اسم المفعول (مُنَزَّل) لإفادة الحدث والتثبيت، وإضافته إلى (رَبِّ الْعَالَمِينَ) تسبغ عليه العظمة الشاملة؛ فهو كلامه سبحانه حرفا حرفا وكلمة كلمة، وأنزل بأمره سبحانه.

*﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، إشراقة بلاغية: (الرُّوحُ) هو جبريل عليه السلام، وُصف بالروح لأنه موكل بإنزال الوحي الذي به حياة الروح والقلوب (القرآن).

الاقتران بين وصف «الْأَمِينُ» للواسطة السماوية (جبريل) ووصف «أَمِينٌ» للرسل البشريين سالفي الذكر في السورة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يمثل السلسلة الذهبية لنقل الوحي: من رب العالمين إلى الروح الأمين إلى الرسول الأمين.

*﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، إشراقة بلاغية: لم يقل "عليك" بل قال «عَلَىٰ قَلْبِكَ»؛ لأن القلب هو محل الوعي، والفهم، والحفظ، والرحمة.

يفيض هذا التعبير بالحنان والإيناس، كما ذكر سيد قطب – رحمه الله -؛ فالقلب النبوي هو الوعاء الذي يتلقى هذا النور ويتشربه ليفاض به على العالمين إنذاراً ورحمة.

*﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، البيان: يتعلق بالنزول؛ فالقرآن نزل بـ «لِسَانٍ» (لغة وحجة)، و«عَرَبِيٍّ» (أفصح الألسنة وأقدرها على التعبير)، و«مُّبِينٍ» (مظهر للحقائق، مبدد للظلمات، بيّن في ذاته).

*﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾: (زُبُر) جمع زَبُور، وهو الكتاب المكتوب المنقوش (الكتب السماوية السابقة). ذكر ابن تيمية – رحمه الله – هنا أنّ ذكر القرآن ونبوة محمد ﷺ في كتب الأنبياء الأوائل برهانٌ تاريخي عابر للزمن يؤكد وحدة المصدر الإلهي ويقطع دابر إنكار المشركين.

*﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، إشراقة بلاغية: استفهام تقريري، فيه تحسر على تعنت مكة؛ أليس يكفي قريشاً برهاناً وشاهداً أن علماء بني إسرائيل (أهل الكتاب والعلم القديم) يعرفون صدق هذا القرآن وصحته؟

الجزء السابع: طبيعة الجحود ولجاجة الاستكبار: *﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾، ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ البيان والتصوير النفسي: «الأَعْجَمِينَ» جمع أَعْجَم، وهو من لا يفصح أو لا يتكلم العربية. التفسير (ابن عاشور): لو نُزّل القرآن بلغة عجمية على رجل أعجمي ثم قَرَأَهُ عليهم بلسانهم معجزةً، لقالوا سِحْرٌ أو تعاصَوْا عليه!

المقصود هو كشف طبيعة العناد القلبي؛ فالعلة ليست في وضوح الآية بل في قسوة القلوب.

*﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: «سَلَكْنَاهُ» أَدْخَلْنَاهُ وسَرَّبْنَاهُ، كما يُسلك الخيط في الإبرة. سلك الله القرآن في قلوبهم مسموعاً ومفهوماً كحجة عليهم – كما ذكر ابن القيم رحمه الله، لكنه لم يُخالطها كإيمان وراحة؛ لأنهم أغلِقوها بالرين والاستكبار.

*﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، الأسلوب: غاية الامتناع؛ إيمانهم طبعي لا يحصل في زمن الاختيار والتكليف، بل ينبثق فقط عند معاينة العذاب (حين لا ينفع الإيمان).

*﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، المشهد الأسلوبي: الفاءان تدلان على السرعة والمفاجأة. يأتي العذاب «بَغْتَةً»، فتنقلب الكبرياء إلى رجاء ذليل مسكين: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ (أي هل يُمهلون لحظة للعادة والتوبة؟).

*﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، إشراقة بلاغية: استفهام إنكاري يقرّع استهزاءهم السابق وتحديهم للرسل بطلب العذاب.

*﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾، ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

الروعة البيانية العميقة: من أروع مشاعد الفناء الدنيوي! الإسناد بـ «سِنِينَ» للتكثير والامتداد. ثم تفاجئهم النتيجة الحاسمة: لو أُمِدَّ الظالم بالشهوات مئات السنين، ثم واجه العذاب الإلهي، لتبخر كل نعيمه السالف وكأنه لم يكن، (مَا أَغْنَىٰ) نفي قاطع وسؤال تهكمي بحقيقة المتاع الزائل.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُؤْتَى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامةِ، فيُصْبَغُ في جهنمَ صَبْغَةً، ثم يقالُ له: يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ويُؤْتَى بأَشَدِّ الناسِ بُؤْسًا في الدنيا من أهلِ الجنةِ، فيُصْبَغُ في الجنةِ صَبْغَةً، فيقالُ له: يا ابنَ آدمَ! هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ [1].

الجزء الثامن: سنة العدل وتنزيّه الرسالة: *﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: تقرير لسنّة «قانون الإعذار قبل الإهلاك». إرسال المنذرين للـ «ذِكْرَىٰ» والتذكير، وينزه الله جل جلاله نفسه العلية عن الظلم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

*﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾، ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

الرد الأسلوبي وتفنيد الشبهة: رداً على فرية المشركين بأن القرآن من كِهانة الشياطين ورجمهم. يتدرج في النفي: نفي الوقوع: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾، ثمّ نفي الملاءمة والصلاحية: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾، فالقرآن نور وهداية وهم أهل ظلمة وفساد. ثمّ نفي القدرة والقدر المادي: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

بيان العلة القدرية: *﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ بالحراسة السماوية والشهب الثواقب.

---

1 - أخرجه مسلم (2807) باختلاف يسير.

*﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾، بلاغة التعريض: الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة والمشركون، كما يقال: (إياكِ أَعْنِي واَسْمَعِي يَا جَارَة)، إذا كان الرسول المعصوم يُحذّر من ذلك، فكيف بغيره؟!

الجزء التاسع: المنهج الميداني للدعوة والتوكل: *﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ التدرج الدعوي: البداية بالأقربين؛ لأنهم أولى بالنصح، ولدحض شبهات الحمية القبلية والشفاعة بالأنساب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: لمَّا نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ جمعَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ قريشًا فخصَّ وعمَّ فقالَ يا معشرَ قريشٍ أنقِذوا أنفسَكم منَ النَّارِ فإنِّي لا أملِكُ لَكم منَ اللَّهِ ضرًّا ولا نفعًا يا معشرَ بني عبدِ منافٍ أنقِذوا أنفسَكم منَ النَّارِ فإنِّي لا أملِكُ لَكم منَ اللَّهِ ضَرًّا ولا نفعًا يا معشرَ بني عبدِ قصيٍّ أنقِذوا أنفسَكم منَ النَّارِ فإنِّي لا أملِكُ لَكم ضرًّا ولا نفعًا يا معشرَ بني عبدِ المطَّلبِ أنقِذوا أنفسَكم منَ النَّارِ فإنِّي لا أملِكُ لَكم ضرًّا ولا نفعًا يا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ أنقِذي نفسَكِ منَ النَّارِ فإنِّي لا أملِكُ لَكِ ضرًّا ولا نفعًا إنَّ لَكِ رحمًا سأبلُّها ببلالِها [1].

*﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هنا ما يسميه البلاغيون استعارة مكنية: «اخْفِضْ جَنَاحَكَ» استعارة تشبيهية للطائر عندما يخفض جناحه لحماية صغاره وعطفه عليهم؛ التواضع، والرحمة، ولين الجانب للضعفاء والمؤمنين.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِهارًا غيرَ سِرٍّ يقولُ: إنَّ آلَ أبي -قال عَمرٌو: في كِتابِ مُحَمَّدِ بنِ جَعفَرٍ بَياضٌ- لَيسوا بأوليائي؛ إنَّما وليِّيَ اللهُ وصالِحُ المُؤمِنينَ. زادَ عَنبَسةُ بنُ عبدِ الواحِدِ، عن بَيانٍ، عن قَيسٍ، عن عَمرِو بنِ العاصِ، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ولَكِن لهم رَحِمٌ أبُلُّها ببَلالِها. يَعني أصِلُها بصِلَتِها [2]..

فقد أقام الإسلامُ بين أتباعِه رابطةً تعلو رابِطةَ النَّسَبِ، وهي أُخُوَّةُ الدِّينِ، وصار الولاءُ بمعنى النُّصرةِ والمحَبَّةِ والإكرامِ للمؤمِنِ تجاه أخيه المؤمِنِ، وليس لأُخُوَّةِ النَّسَبِ في ذلك شيءٌ إلا ما شَرَعه الإسلامُ من صِلةٍ، وما أوجَدَه من حُقوقٍ.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ، بهذا الحسم والأدب: البراءة من "العمل" الفاسد دون الفجور في المخاصمة الذاتية، مفاصلة العقيدة بلا مساومة.

*﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، التوكل هو: الاعتماد والإسناد: بعد أداء التكليف، يأتي التوكل على الله، الذي يجمع في أسمائه وصفاته بين «الْعَزِيزِ» (القادر على نصرتك) و«الرَّحِيمِ» (بضعفك وصدقك).

---

1 - أخرجه البخاري (2753)، ومسلم (206) بنحوه مختصراً، والترمذي (3185) واللفظ له

2 - أخرجه البخاري (5990).

*﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾، الشفافية ولطف الله حل وتعالى: يراك حين تقوم إلى صلاتك عند أكثر المفسرين، وقال مجاهد: الذي يراك أينما كنت.

*﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، أي يرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك، يراك حين تقوم وحدك للصلاة، ويراك إذا صليت مع المصلين في جماعة.

وقال مجاهد: يرى تقلب بصرك في المصلين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: هل تَرَونَ قِبلَتي هاهُنا، فواللهِ ما يَخفى عليَّ خُشوعُكُم ولا رُكوعُكُم؛ إنِّي لَأراكُم مِن وراءِ ظَهري[1]..

معناه: أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إدراكًا مِن ورائِه، وهذا مِن خَصائِصِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإبصارُه إدراكٌ حَقيقيٌّ انخرَقَت له فيه العادةُ، وقد انخرَقَت العادةُ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأكثَرَ من هذا، وليس يمنَعُ مِن هذا عَقْلٌ ولا شَرْعٌ، بلْ وَرَدَ الشَّرعُ بظاهِرِه؛ فوجَبَ الإيمانُ به.ويَحتمِلُ: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَراهم بما يوحَى إليه مِن أفعالِهم وهَيئاتِهم في الصلاةِ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ قد يُعبَّرُ بها عن العِلمِ والاعتِقادِ.والمَعنى المُرادُ مِن ذلك: اخْشَعوا في الصَّلاةِ، وأَتِمُّوا أركانَها كأنِّي أَنظُرُ إليكم وأُوَجِّهُكم إلى صَحيحِها؛ فإنِّي أرَى أحْوالَكم في الصَّلاةِ مِن وَرائي حالَ كَوْني واقِفًا إمامًا لكم وأنتم خَلْفي، كما أَراكم وأنا ناظرٌ إليكم أمامي.وفي الحديثِ: مِن دَلائلِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2]..

*﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أقصى درجات الطمأنينة لقلب الداعية؛ أن يعلم أنه تحت عين الله وشرف مراقبته في كل سكناته وحركاته.

وعن أبي هريرة في حديث جبريل الطويل، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراه، فإن لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك[3]..

الجزء العاشر: الفاصل الحاسم بين الشياطين والشعراء وبين النبوة: *﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

الاستفهام والتحليل النفسي: استفهام للتشويق ولفت الأذهان. تنزل الشياطين يحتاج لبيئة ميّتة خبيثة: «أَفَّاكٍ» (كذاب مجرم) و«أَثِيمٍ» (مستغرق في الآثام والخطايا). والرسول ﷺ أبعد الناس عن هذه الصفات الرذيلة.

---

1 - أخرجه البخاري (418)، ومسلم (424) باختلاف يسير.
2 - الدرر السنية.
3 - أخرجه البخاري (50) واللفظ له، ومسلم(9)

*﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾: التحليل الأدبي والنفسي لمفهوم الشعر العابث: وقد اتهم النبي صلى الله عليه وسلم: (أن القرآن شعر والرسول شاعر)، كما في سورة الطول: (**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ**) **[الطور:30–31]**، وشتان بين منهج النبوة ومنهج الشعراء؛ فالشعر القائم على العبث يتبعه «الْغَاوونَ» (أهل الهواء والتيه).

*﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، التخبط العاطفي، التقلب بين المديح بالباطل والذم بالباطل، والغرق في الأوهام الخيالية بلا خط أمل أو مقصد أخلاقي.

*﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، انفصام الكلمة عن السلوك، والتظاهر بالشجاعة والكرامة كذباً. بينما النبوة حقيقة، استقامة، وتطابق تام بين القول والعمل.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

الاستثناء العظيم: يرى ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله أن هذا الاستثناء يُعيد للكلمة الأدبية الشاعرة هيبتها ورسالتها! الشعر ليس مذموماً كله، بل مقصده.

عن عائشة بنت الصديق رضي الله عنها قالت: سُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن الشِّعرِ فقال: هو كلامٌ فحَسَنُهُ حسنٌ وقبيحُه قبيحٌ[1].

الاستثناء يضع أربعة شروط للشعر والأدب الرسالي المؤمن: العقيدة: ﴿آمَنُوا﴾. السلوك: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. الاتجاه والذاكرة: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾. الوظيفة والموقف: ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ (كشعراء الرسول ﷺ: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة)؛ الذين استخدموا الفن والكلمة في نصرة الحق والمظلومين. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل[2].

---

1 - أخرجه أبو يعلى (4760)، والبيهقي (21153)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (4/ 278) واللفظ لهم، وقال الألباني عن سنده: إذا لم يكن له علة غير ابن ثوبان فهو حسن الإسناد لأن ابن ثوبان صدوق يخطئ، وقيل: بل هو موقوف من كلام عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها.

2 - أخرجه أحمد (27174) بلفظه تامًا، وابن حبان (4707)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (11/ 5) (4707)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكةَ في عمرةِ القضاءِ، وابن رواحةَ يمشي بين يديهِ، وهو يقول: خَلّوا بني الكفار عن سبيلِهِ*اليومَ نضرِبُكُم على تنزيلِهِ*ضَربا يُزيلُ الهامَ عن مقيلِهِ*ويذْهلُ الخليلُ عن خليلِهِ . فقال له عمرُ: يا ابن رواحةَ بين يَدَيْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وفي حرمِ اللهِ تقولُ شِعْرا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: خَلّ عنهُ يا عمرُ، فلهِيَ أسرعُ فيهم من نضحِ النَّبلِ [1].

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لحَسَّانَ: اهجُهم -أو: هاجِهم- وجِبريلُ معكَ. وزادَ إبراهيمُ بنُ طَهمانَ، عَنِ الشَّيبانيِّ، عن عَديِّ بنِ ثابتٍ، عَنِ البَراءِ بنِ عازِبٍ، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَ قُرَيظةَ لحَسَّانَ بنِ ثابتٍ: اهجُ المُشرِكينَ؛ فإنَّ جِبريلَ معكَ [2].

الخاتمة والوعيد المزلزل: ختام هائل ومزلزل للسورة بأكملها!: الملاحظ في الآية الأخيرة التعبير بـ «سَيَعْلَمُ» (السين للقرب والحتمية)، والتنكير الشديد والإبهام في «أَيَّ مُنقَلَبٍ» لتفخيم التهديد والتهويل من المصير والمغبة التي تنتظر الظالمين والمكذبين. تتجاوب هذه الخاتمة مع مطلع السورة وقصص الأنبياء، لتبقي القارئ في حالة وجل، ويقين مطلق باستعلاء الحق وانقشاع الباطل. اللهم آمين.

---

1 - أخرجه الترمذي (2847)، والنسائي (2873) باختلاف يسير، وقال الترمذي: حسن غريب، قال في الحاشية على تهذيب تفسير البغوي: وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث . . إلى أن قال: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضية وكعب بن مالك بين يديه، قال وهذا أصح عند بعض أهل الحديث، لأن عبد الله بن رواحة قتل (استشهد) يوم مؤتة وإنما كانت عمر القضية بعد ذلك. انظر تهذيب تفسير البغوي (ص875).

2 - أخرجه البخاري (4123)، ومسلم.(2486)